

إيزابيل

Isabelle

رواية : أندريه جيد

ترجمة وتقديم : فتحي العشري

اهداء

هدي سراج الدين

جوزين جودت

ليلي بسيوني

زميلاتي

فتحي

إيزابيل

مقدمة

أندريه جيد . . . الأخلاقى

أندريه جيد هو الحائز على جائزة نوبل في الأداب عام ١٩٤٧ مضيفا للفرنسيين جائزة جديدة من هذه الجوائز العالمية الفريدة . . .

ولد أندريه جيد في الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٨٦٥ في العاصمة الفرنسية عن أب وصل الى كرسى القانون بكلية باريس وأم من اشرة ثرية . . كان الأب بول والام جوليت رونورد من صفوة المجتمع بحيث وجد أندريه نفسه وهو بعد في شبابه يجلس بين الوزراء ورجال الدين . . أما تعليمه فقد تلقاه على أعلى مستوى بداية من المدرسة الألزاسية الداخلية التى أبعدته عن اسرته فترة مرض فيها . . فلما توفى والده - عام ١٨٨٠ وكان أندريه في الخامسة عشرة اصيبت الام بحالة عصبية ثم انتقلت الى مونبلييه مع ابنها الى جانب عمه رجل القانون والدراسات السياسية ولكن في شقة ضيقة بعيدة عن مظاهر الثراء الاولى ولاندرى لماذا . .

ومع هذا فرضت الام البروتستانتية المتشددة رقابة مشددة على ابنها ولم تنس انها نورماندية بورجوازية حتى بعد رحيل الاب وتراجع مستوى الاسرة الاقتصادية . . لم تكن الام هى المرأة الوحيدة في شباب أندريه فقد قامت على رعايته نساء أخريات منهن خاله ماتيلدا التى اقام معها عام ١٨٨٢ وعایش إبننتها مادلين التى أثرت فيه كثيرا لدرجة أنها اصبحت بطلة لاحدى رواياته وهى " اللاخلاقى التى كتبها عام . . ١٩٠٢

أفاد أندريه في هذه المرحلة من العزلة بزيادة القراءة والتأمل من ناحية وبنزعة التمرد والثورة التى ظهرت في كل كتاباته من ناحية اخرى . .

وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الاول " كراسات أندريه فالتر " وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره . . ويلاحظ انه لم يعلن عن اسمه صراحة فاستعار اسما اخر والواقع انها مذكرات اكثر منها اى شىء اخر . . . ولم يكن هذا بسبب الكبت والتزمت وهدهما ولكنه كان ايضا نتيجة لتعرفة على " مالارميه " وهويسمان و" مانبييرلنك " . .

ووصل تمرد أندريه جيد الى حد مهاجمة فكرة الاسرة وخطأ الرجل في الارتباط بأمرأة وانه لاتوجد أسرة مثالية . . . ودون تلك الافكار الغريبة على المجتمع في " بحث نرسييس " والكلمة كما هو معروف تعنى " النرجسية " او حب الذات . . . وهو ماكشف عن مسعى جيد الدائم للحرية فهو يستهدف تحرير نفسه وتحرير الانسان بشكل عام . . .

في هذه الفترة وهو بعيد عن امه كتب لها رسائل يعبر فيها عن حبه لها رغم ضيقه من تشدد لها لانه لم ينس أنها هى التى شجعتة على القراءة وانها الانسان الوحيد الذى يأنس الهويستكين معه . . . حتى أن " كراسات يفالتر " جاءت الهاما من امه فضلا عن التأثير بالافكار القادمة من المانيا وبريطانيا . . .

فالفيلسوف نيتشة كان قد اطلق فلسفته الهتلرية في فكرة " الانسان الخارق " وفي المقابل انطلقت على يدى اوسكار وايلد الدعوة للايمان بجمال الحياة والفن . . . وانجاز جيد لوايلد ولكنه اثر ان يستطلع آراء اخرى فقرأ دوستوفسكى وبارريس وطالع تاريخ اليونان والرومان والتهم عددا من اللغات ومنها اللغة العربية . . .

ولعل الافكار المتعارضة سواء القائمة من الخارج او تلك التى نادى بها واعتنقها مفكرو فرنسا هى التى جعلت من جيد هو الآخر طائرا بجناحين وخاصى في شبابه فهو المغامر وهو العاقل في الوقت نفسه هو الذى يسعى للمتعة الذاتية وهو الذى يقدم على التضحية هو الذاتى وهو الغيرى في ذات الوقت . .

من هنا تأثرت اعماله فكتب " الاطعمة الارضية " والشاذ و " الباب الضيق " و " السيمفونية الريفية " و " المزيفون " . . وهو أعمال تظهر هذا التناقض استهتارا ميشيل في " الشاذ " والتزام اليساد في الباب الضيق " والخارج على القانون لافاكاديو ورجل الدين المتسك بدينه الممسك بقيمه . . .

لكن عام ١٨٩٥ عصفت بجيد فقد ماتت امه ووجد نفسه وحيدا مكتنبا وكانت اصدااء جوته بشعره وعبقريته تتردد في كل كيانه . . . عندئذ فكر في الارتباط بصديقة الصبا والاحلام مادلين ابنه خالته وكأنه يبحث دائما عن امه في اقرب الناس اليها . . .

ومادلين فتاة رقيقة اثرت على جيد بقوة حتى انها اصبحت الشخصية المحورية في احدى رواياته وهى " اللاخلاقى " بل في اعمال اخرى ايضا . . . وعلى الرغم من ان مادلين كانت تكبره بثلاث سنوات الا انه كان يرعاها ويحتضنها حتى وهى تبدي نضجا وتعقلا وحكمة وجدية . . . تحولت الصداقة اذن الى زواج وسافر معها الى شمال افريقيا وايطاليا وسويسرا وهى الرحلة مالتنكتب عنها في رواية " اللاخلاقى " التى تقترب كثيرا من شكل المذكرات ا وهى كذلك . .

لم يهجر جيد فكرة المذكرات والاعترافات في اعماله فسجل مراسلاته مع بول فاليرى في " اذا كانت البذرة لاتموت " ومع بول كلوديل في " اليوميات " . .

لكن المذكرات الالهة جاءت في كتاب بدأه عام ١٨٨٩ وانتهى منه عام ١٩٤٧ . . . وقد افضى في آخره عن خلاصته تدجربة الحياتية والادبية اذا قال " أقمت مدينتى التى سيسكنها فكرى من بعدى مخلدا الى الابد وانا اشعر بالرضى لانى اطرق باب الموت وحدى بعد ان اشتهمت بخيرات الدنيا وشعرت بأننى سأكون سببا في اسعاد الناس الذين سيكونون من بعدى اسعد حالا واكثر حرية وافضل وضعاً . . . لقد قمت بعملى من اجل خير الاجيال البشرية القادمة . ولقد عشت حياتى . .

ولعل اهم اعمال جيد بعد ذلك تتمثل في " معاهدة نرسييس عام ١٨٩٢ ورحلة عام ١٩٠٧ " والباب الضيق عام ١٩٠٩ و " ايزابيل عام ١٩١١ . .

ورغم كل هذه الاعمال لم ينتشر اسم جيد ولم تتحقق شهرته ولم ينل تقديره ولم يحظى بمجدة الا بعد ان قدم المسرح الفرنسى معالجة درامية لاحدى رواياته . .

فقد قال عنه الناقد الفرنسي " بنيامين كريميو " انه رغم شخصيته المضطربة المعقدة المتناقضة القلقة الا انه شخصيته نادرة وصورة ثرية لفنه الثرى . .

ويقول د . نظمي لوقا إن قراءة دوستوفسكى وفريد قد اكسبت جيد قدرة أعلن أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التى تكبحها التربية وتكبتها في اعماق اعوارنا فإن لم تجد متنفسا لها سممت منابع الحكم العقلى وهكذا تتحول الاخلاقيات الظاهرة الى نفاق ورياء ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ولو ادى ذلك الى الفضيحة ويعتقد انه ربما اظهرت في هذا الاطار الصريح شعلة العبقرية . . . هو اذن ضد الانقياد للاخلاقيات الشائعة بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقيادا أعمى ولكنه مع هذا احتفظ في تكوينه النفسى بتيار متدين وهذا هو السر في معظم اعماله لاستشهادة في كثير من المواضيع بالانجيل " . . .

إسمعه يقول " كم أتمنى أن اقمع شهواتى بالعمل المضنى " . . . وقد قيل عنه أنه يتمتع بعاطفة دينية دفينه رغم أفكاره التحررية فهو يذكر الله والاخرة بطريقة المتصوف الزاهد الذى يدرك ان نهاية المطاف تفضى الى لقاء الله فهو الوحيد في كل مكان . . .

فإذا تناولنا رواية مثل " اللاخلاقى " وجدنا ان جيد هو نفسه ميشييل في علاقته بالحياة والناس وامه أما والده فلم يذكر كثيرا بينما تحدث عن افريقيا طويلا نتيجة لزيارته لها مركزا على الجزائر وتونس وبصفة خاصة مدينة سوسة التى عاش فيها الوقت الاكبر من رحلته الافريقية فهو يرى ان افريقيا تحمل في داخلها جاذبية غريبة على حد تعبيره . . .

امعه يقول عن افريقيا " إننى في افريقيا اسمع وارى واتنفس مثلما لا افعل في اى مكان وحينما تتسلل عطورها والوانها وعبقها في داخلى فأئننى احس بقلبي يفرح وينتحب من العرفان الجميل . . . خدوني الى داخل هذه الارض كم اصبح وانا احس بضيقها وياله من ضياء مشع " . . .

اما اذا تناولنا هذه الرواية " إيزابيل " فسنجد انه يعترض على تحرير البطلة الزائد والرغبة في التخلص من القيود بأى طريقة وبأى ثمن . . مما يؤكد ان هذا الاعتراض لا يتعارض مع رفضة للتمت والرقابة والقهر وهما ماتعانى منه المرأة اكثر من الرجل في كل المجتمعات حتى المتقدمة منها . . .

وتقديرا لاحساسه بالناس ومحاولة تمهيد طريق الهداية والقناعة والرضى والايمان امامهم منح جائزة نوبل العالمية في الاداب عام ١٩٤٧٠٠

ورحل جيد فى عام ١٩٥١ عن ٨٦ عاما لم يحس في أواخرها أبدا انه كهل اصابة الوهن ودهمته الشيخوخة فقد ظل يكتب ويبعد بعد بلوغه الثمانين من عمره ولم يكف الا بعد ان اصابه المرض في السنوات الثلاث الاخيرة من عمره . . .

Isabelle

Par : Andre Gide

ايزابيل

ترجمة وتقديم : فتحى العشرى

شخصيات الرواية

Gerard Lacase	جيرار لاكاز
Benjamin Floche	بينجمان فلوش
Mme Floche	مدام فلوش
Saint – Aureol	سان – أوريول
Mme de Saint – Aureol	مدام دى سان – أوريول
L Abbe Santal	لابيه سانتال
Isabelle	ايزابيل
Casimir	كازيمير
Mlle Verduze	الانسة فيردور
Cratien	جراسيان

إيزابيلا

جيرار لا كاز الذى تقابلنا عنده في أغسطس عام ١٨٩١ قام باصطحابى وفرنسيس جام الى قصر " الكارفورش " بعدما اندثر ولم يبق منه غير أطلال خربة وحديقة شاسعة مهملة يصلح ويجول فيها الصيف بتبرجه - حتى مدخل القصر لم يعد يحويه شيء • فالخندق ردم حتى نصفه والسياح المحيط به تهدم والبواب الحديدى لم يعد محكما لدرجة انه يستسلم لاول دفعة من كتف احدنا • إختفت الممرات بعد ان جاوزت الارض الخضراء حدودها فترى بعض الابقار طليقة ترعى الكأ الغزير ••• بينما تنتشد بعض الابقار الاخرى مكانا رطبا وسط الادغال المترامية الاطراف • لا يميز المشاهد هذا الفيض البرى زهرة غريبة كانت او اوراق شجرة مختلفة عن النباتات القديمة تكاد تخنقها النباتات الشائنة بأنواعها •

كنا نسير خلف جيرار دون ان ننطق بكلمة واحدة كنا مبهورين بروعة المكان والتوقيت ونشعر بكل ماينطوى عليه ذلك الرخاء من حزن وهجر • بلغنا سلم القصر ودرجاته الاولى الغارقة في الاعشاب بينما درجاته العليا محطمة زمنفصلة بعضها عن البعض الاخر • وما أن وصلنا الى ابواب غرفة الاستقبال وهى نوافذ في الوقت نفسة حتى إعترضتنا مصاريعها المنيعه • لم تتمكن من دخول القصر الا من فتحة في القبر تسلنا عبرها كما للصوم كان هناك سلم يؤدى الى المطابخ فلم تكن الابواب الداخلية مغلقة •• واصلنا متقلبين من غرفة الى اخرى بجذر ، فالأرضية تميد تحت اقدامنا موشكة على الانهيار نضغط صوت خطواتنا ليس خشية من ان يسمعنا احد ولكن لان الصدى الذى احدثه وجودنا في القصر الخال المتسم بالسكون المطبق كان يدوى لدرجة الفزع خاصة وان نوافذ الطابق السفلى خلت من الالواح الزجاجية

في شبه الظلام الذى يكتنف غرفة الطعام وجدت اعشاب البيونيا من خلال مصراعى النافذة بسيقانها الضخمة اللينة البيضاء اللون •

جيرار تركنا وإعتقدنا انه فضل ان يشاهد وحدة مرة اخرى هذا القصر الذى عرف اصحابه فواصلنا تفقدنا بدونه اذ ربما يكون قد سبقنا الى الطابق الاول مجتازا تلك الغرف الفارغة التى تخيم عليها الكآبه في إحدى تلك الغرف عصن من البقس لايزال يتدلى علالجار يقيدة الى ابزيم شريط حريرى إنطفأ لونه وبدا متأرجحا عند طرفى رباطه في وهن فأدركت ان جيرار إنتزع منه فرعا وهو يمر منذ برهة •

قابلنا جيرار في الطابق الثانى بالقرب من نافذة احد الممرات كانت بلا زجاج ينفذ منها حبلا يتدنى من الخارج وهو لاحد الاجراس همت بجذبه برقة وعلى مهل فشعرت بذراع جيرار تمسك بذراعى ولكنها زادت من مداها بدلا من أن توقف حركتى •

وفجأة دوى صوت مكتوم بالقرب منا بحيث جعلنا ننتفض في فزع بعدها ولما عاد السكون سمعنا دقتين متباعدتين لم يلبث أن غاب صداهما •

إستدريت ناحية جيرار فرأيت شفتيه ترتعدان وهو يقول :

هيا بنا ننصرف فأنا في حاجة الى استنشاق هواء اخر

عند خروجنا اعتذر جيرار عن استمرار اصطحابنا بدعوى معرفته لشخص في الأحياء المجاورة يريد أن يستفسر عن أحواله • فلما أدركنا من لهجته انه لايليق أن نصحبه عدت مع جام الى حيث لحق بنا جيرار في المساء •

قال جام لجيرار بعد برهة :

صديقي العزيز قررت الا أروى أية قصة قبل ان تطلعنات على هذه القصة التى تملك عليك فؤادك

علما بأن قصص جام كانت مبعث متعة في سهراتنا

قال جيرار

يسعدنى أن أروى لكما القصة التى كان القصر مسرحا لها فضلا عن اننى لا استطيع عرضها أو استعراضها كاملة ، لاننى أخشى الا اتمكن من ذلك فأسلب من وقائعها ذلك السحر الذى يغلف الالغاز وكان فضولى فيما مضى يخلعه عليها •

عقب جام قائلا "

لاتبال بنظام أو تسلسل

وقلت :

ما الداعى لرواية الوقائع طبقا لتسلسل التاريخى ، وما المانع من عرضها كما عرضت لك ؟

قال جيرار :

هكذا تتيجان لى أن أتحدث عن نفسى كثيرا

رد جام من فوره قائلا :

لا أحد منا يفعل غير ذلك

واليكم القصة التى رواها جيرار

يكاد يكون من الصعب اليوم إدراك الشغف الذى كان يدفعنى الى الحياة كنت في الخامسة والعشرين من العمر لا أدري عن الحياة شيئاً الا عن طريق الكتب • وربما كان هذا هو السبب الذى جعلنى أظن نفسى روائياً • كنت لازلت اجهل أن الاحداث تحجب عن عيوننا بالدهاء والمكر وذلك الجانب الذى قد يزيد من إهتمامنا بها وكيف انها تستغل علينا وتمتتع اذا لم نكن نعرف كيف نفتحمها •

كنت في ذلك الحين اعد لرسالة الدكتوراة عن تاريخ " حكم بوسوييه " ولم يكن ذلك عن ميل خاص يجذبنى الى بلاغة اصحاب المنابر وانما اختياري لهذا الموضوع جاء تكريماً لاستاذى الجليل " البير دينوس " الذى كان كتابه العظيم " حياة بوسوييه " على وشك الصدور • وما ان علم الاستاذ دينوس بموضوع رسالى حتى ابدى استعداداً لمساعدتى في منهجه وتناوله مع اقدم اصدقائه ويدعى " بنيامين فلوش " العضو في مجمع الخطوط والاداب •

هذا الصديق كان يملك وثائق تفيدنى في بحثى وخاصة نسخة من التوراة بها شرح وحواش بخط بوسوييه وكان السيد فلوش قد اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عاماً تقريباً واعتكف في قصر الكارفورش الذى كان الناس يطلقون غالباً في الغلب " كارفور " وهو من ممتلكات الاسرة في ضواحي " بون ليفيك " ولم يعد السيد فلوش يبرح هذا القصر ومن دواعى سرورى ان لى ستقبلنى فيه ووضع تحت تصرفى مستنداته ومكتبة وعلمه الغزير الذى قال عنه الاستاذ دينوس انه علم لا ينضب معينه •

وأخذ السيد دينوس والسيد فلوش يتبادلان الرسائل وتبين ان الوثائق كانت اكثر مما توقعت في بادىء الامر كما توقع استاذى ولم يتوقف الامر عند الزيارة فقد تحول الى اقامة في القصر عرضها على بلطف السيد فلوش بناء على توصية من السيد دينوش • لم يكن للسيد فلوش وزوجته اولادا ومع هذا لم يعيشا في القصر بمفردهما • كلمات صدرت عفوية عن السيد " فلوش " وتلقاها خيالى جعلتنى اتوقع ان اجد في القصر صحبة جميلة سرعان ما اجتذبتنى اكثر من وثائق القرن السابع عشر العظيم والمليئة بالاثرة وكأن بى أدخل القصر لا طالبا للعلم ولكن مغامراً •

كتى انى ملأت القصر بالمغمرة قبل أن أدخله • كنت أردد اسم " الكارفورش " بغموضة وأحدث نفسى قائلاً " هنا يتردد هرقل " • • وأعرف ما ينتظرخ على طريق الهداية والفضيلة ولكن ماهو الطريق الاخر • • الطريق الآخر ؟ • •

في منتصف سبتمبر بالتقريب جمعت أفضل مافى دولاب ملابسى من ثياب متواضعة وجددت أربطة العنق ثم رحلت •

لما بلغت محطة " بروى - بلانجى " بين " بون ليفيك " و " ليزيو " كان الليل قد اسدل كل استارة تقريباً كنت الوحيد الذى هبط من القطار أقبل قروى يرتدى زى الخدم وأخذ حقيبتي وصحبني الى عربة كانت تقف في الجانب الاخر من المحطة • حد مشهد الجواد والعربة من جموح خيالى وانطلاقه فلا يمكن للانسان أن يتصور منظراً اكثر فظاعة وقبحاً وعاد القروى الحوذى ليتسبم صندوق الامتعة الذى كنت قد شحنته تحت هذا الثقل الزائد ناءت العجلات • ومن داخل العربة فاحت رائحة خانقة شبيهه بتلك التى تفوح من عشب

الدجاج . . أردت أن افتح زجاج الباب لكن مقبض الجلي خرج في يدي كانت السماء قد امطرت اثناء النهار فكان الطريق موحلا وعند اول منحدر سقطت قطعة من طاقم الجواد فاخرج الحوذى من تحت مقعدة طرفا من حبل وتهيأ لاصلاح مجرة العجلة . كنت قد نزلت من العربة وعرضت على الحوذى ان امسك له المصباح الذى كان قد اشعله منذ برهة . وهنا تمكنت من ان ارى زى الرجل المسكين الذى اعيد رتقه كما هي حال طاقم الجواد فقلت له :

الجلد قديم نوعا

رمقنى وكأننى لعنته وقال لهجة تكاد تكون فظة :

ومع هذا تمكنا لحسن حظك من المجيء للقائك

فسألته بصوت رقيق :

هل المسافة تبعد كثيرا عن القصر ؟

لم يرد بشكل مباشر ولكنه قال :

بالتأكيد : إننا لانقطع هذه المسافة كل يوم

ثم أضاف بعد لحظة :

مضت ستة اشهر تقريبا ولم تخرج العربة

فعقبت في محاولة يائسة لفتح باب الحوار :

الا ينتزعه سادتك ؟

هل تعتقد انه ليس لدينا عملا غير ذلك ؟

كان قد انتهى من اصلاح الخلل فدعانى بأشارة الى الصعود ثم انطلقت العربة من جديد

كان الجواد يجاهد في إرتقاء المرتفعات يتعثر ويكبو في المنحدرات ويعدو في السهل عدوا مخيفا وفي بعض الاحيان كان يتوقف فجأة . حدثت نفسى قائلا " على هذا النحو الذى نسير به سنصل الى الكارفور بع ان يكون اهل القصر قد فرغوا من تناول طعامهم وحتى بعد ان يكونوا قد ناموا " فقد توقف الجواد مرة اخرى وبدأ مزاجى ينحرف . حاولت ان ارى البلدة واذا بالعربة تنحرف دون ان لاحظ عن الطريق الرئيسى وتسلك طريقا اخر اكثر ضيقا واقل تمهيذا لم تكن مصابيح العربة تضئ يميننا ويسارا فيما عدا سياجا متصلا مرتفعا وكثيفا كان يحاصرنا ويسد علينا السبيل يفسح الطريق في لحظة ثم لا يلب ثان يطبق من جديدي بعد عبورنا

مان بلغت العربة ربوة وعرة حتى توقفت من جديد إقترب الحوذى من الباب وفتحة ثم قال بكل بساطة :

هل يتكرم سيدى بالمزول ؟ المطلع وعر بعض الشئ على الجواد

وصعد بنفسه المطلع ممسكا بزمام الجواد وفي منتصف المسافة التفت نحوى وكنت اسير وراءه وقال بنبرة رقيقة :

وصلنا بسرعة انظر هاهى الحديقة

استطعت ان اميز دغلا كثيفا من الاشجار كان يشكل طريقا تحفة اشجار الزان الضخمة سرعان ماخذنا فيه فلقينا الطريق الاول الذى كنا قد انحرفنا عنه دعانى الحوذى الى صعود العربية مرة اخرى وسرعان مابلغنا الباب الحديدى فتسللنا الى الحديقة •

كان الليل من السواد بحيث لم أستطع أن أبتين شيئا من واجهه القصر • أوصلتنى العربية امام سلم يتكون من ثلاث درجات إرتقيتها مبهورا من ضوء المشعل الذى كانت تحمله في يدها وتسلمة نحوى امرأة خالية من معالم السن وملامح الجمال سمينة الجسم متواضعة الثياب حيثنى تحية مغممة بالجفاء فانحنيت لها وقلت مترددا :

مدام فلوش بالطبع!

بل الانسة فيردور السيد فلوش وزوجة نائمان ويعتذران عن عدم حضورهما لاستقبالك فالناس هنا يتناولون عشاءهم مبكرا

وأنت ياآنستى هل جعلتك تسهرين حتى ساعة متأخرة ؟

قالت دون أن تلتفت الى :

آوه ! أما انا فقد أعتدت ذلك

كانت قد سبقتنى الى الممر فقالت :

اعتقد أنك لاتمانع في تناول شىء ما !

الحق أنى لم أتناول عشائى

أدخلتنى حجرة طعام شاسعة أعدت فيها وجبة عشاء دسمة مثل تلك الوجبات التى تعقب الصوم

الفرن مطفاً في هذا الوقت وفي الريف على الانسان ان يقنع بما يجده

قلت وأنا أجلس الى المائدة اما م صحن من اللحم البارد :

لكنى اجد ان هذا عظيما

جلست منحرفة على مقعد بالقرب من الباب وطوال تناولى الطعام ظلت خافضى الراس وحاولت مرات كلما انقطع خيط الحديث أن اعتذر لها عن اسبقائى لها الى جوارى ولكنها جعلتنى ادرك أنها تنتظر حتى انتهى من عشائى لترفع المائدة •

لو إنصرفت أنا فكيف ستعرف حجرتك ؟

تعجلت وأكلت بسرعة واذ بباب الممر يفتح ويدخل منه قس أشيب الشعر صارم الوجه لكنه لطيف
أقبل نحوى وهو يمد يده قائلاً :

لم أشأ أن ارجىء الى الغد الاستمتاع بتحية ضيفنا ولم انزل اليك قبل الان لاننى كنت اعلم انك تتبادل
الحديث مع الانسة أوليمب فيردور

قال ذلك وهو يوجه اليها ابتسامة خبيثة بينما كانت هى تزم شفيتها وتبدى سحنة خسنة واستطرد يقول
بينما كنت اغادر المائدة

الان وقد انتهيت من طعامك فستترك الانسة اوليمب هنا لتعيد النظام الى المكان . واعتقد انها ترى
من الالىق ان تكل الى رجل امر اصطحاب السيد لاکاز الى حجرة نومه وأن تتنازل عن مهام وظيفتها في هذا
الشان .

إنحنى امامها بإحترام متكلف فحيته بطريقة مقتضبة :

- أوه ! أتنازل لك ياسيدى القس انا كما تعلم أتنازل دائما . .
ثم استطردت وقد عادت الينا فجأة :
كنت ستتسنى أن اسال سيدى لاکاز عما يتناوله في الافطار

ماتشائن يانستى . . ماذا تتناولون هنا عادة؟

كل شيء . . اعد الشاى للسيدات والقهوة للسيد فلوش والحساء لسيدى القس ومشروب خاص للسيد كازيمير

وانت يانستى الا تتناولين شيئاً ؟

أوه انا أتناول القهوة باللبن فحسب

لو سمحت سأتناول معك قهوة باللبن

فقال القس وهو يمسك ذراعى :

هيه ! هيه ! حاذرى يانسة فيرودور يبدو لى ان السيد لاکاز يغازلك !

هزت كتفها ثم حيتنى تحية سريعة بينما القس يسحبنى معه

كانت حجرتى تقع في الطابق الاول في نهاية الممر

قال القس وهو يفتح باب حجرة كبيرة تضيئها نار المدفأة :

عفوك اللهم وغفرانك لقد اوقدوا لك نارا ٠٠٠ ربما تكون في غنى عنها ٠٠ صحيح ان الليل في هذه البلدة يكون رطبا وفصل الشتاء هذا العام غير عادى

كان قد إقترب من المدفأة فمد لها راحتيه العريضتين محولا وجهه عنها ٠٠ وكأنه عابد يدفع عن نفسه محاولات الاغراء وكان استعداداه للحديث يبدو لى اكثر من استعداداه لتركى لكى انام ٠

بدأ حديثه قائلا وقد رأى صندوقى وحقيبتى :

آه احضر لك جراسيان امتعتك

سألته قائلا:

جراسيان هو ذلك الحوذى الذى صحبنى ؟

وهو أيضا البستاني لأن أعماله كحوذى قلما تشغل وقته

أخبرنى بالفعل أن العربة لاتخرج كثيرا

خروجها يعتبر حدثا تاريخيا ٠ ثم ان السيد دسانت أوريول لم يعد يملك جيادا منذ زمن بعيد ولذلك ففي المناسبات الكبرى مثل الليلة نستعير جواد المزارع فرددت مندهشا :

السيد دسانت أوريول ؟

أجل أعرف أنك جئت للقاء السيد فلوش ولكن قصر الكارفوش ملك لشقيق زوجته وغدا ستشرف بمعرفة السيد دسانت أوريول وزوجته

ومن هو السيد كازيمير الذى لا أعرف عنه غير أنه يتناول مشروبا خاصا في الصباح ؟

حقيدهما وتلميذى ٠ شاء الله أن أقوم بتعليمه منذ ثلاث سنوات

قالها وهو يغمض عينيه في خشوع وكان الامر يتعلق بأجر من أختك فيفيل

سألته قائلا :

أبواه هنا ؟

لا علي سفر

ضغط على شفتيه بقوة ثم قال من فوره

أنا أعرف ياسيدى أى دراسات نبيلة مقدسة جاءت بك

قاطعته من فورى

أوه ! لا تبالغ في قدسيتها إنها لاتهمنى الا من وجهة نظر المؤرخ

قال وهو يبعد بيده كل فكرة غير طيبة :

لايهم للتاريخ ايضا حقوقه سجد في السيدة فلوش أرق مرشد واكبر دليل

هذا ما أكدته لى استاذى السيد دينوش

أه أو أنت تلميذ البير دينوش ؟

ضغط على شفتيه من جديد تجرأت ووجهت اليه هذا السؤال :

هل درست على يديه ؟

رد بجفاء :

- كلا ما اعرفه عنه جعلنى التزم الحذر . . انه مغامر فكرى وفي مثل سنك ينجذب المرء بسهولة لما يشذ

عن المؤلف ولما لم أجب بشيء قال :

- كان لنظرياته بعض التأثير على الشباب ولكن الناس بدأوا يفيقون منها مثلما بلغنى

كانت رغبتى في الجدل اقل من رغبتى في النعاس ولما وجد انه لن يحصل منى على اجابة إستطرد قائلا :

- سيكون السيد فلوش خير ناصح لك . ثم قال بعدثناء لم أملك اخفائه :

- الوقت متأخر غدا لو أردت يمكننا أن نجد وقتا كافيا لاستئناف الحديث فلا بد أنك مرهق بعد هذا السفر

- الحق ياسيدى القس ان النعاس يهدنى .

ما ان غادر الحجرة حتى رفعت الحطب من المدفأة وفتحت النافذة على مصراعيها الخشبيين فاذا بهبه

ريح خفيفة تراقص لهب شمعتى فأطفأتها لى أتأمل الليل كانت حجرتى تفضى الى الحديقة ولكنها لاتطل على

واجهه القصر شأن حبرات الممر الست وأنها تتمتع بمظر يمتد فيه مدى البصر أطول وأبعد . سرعان ما

أوقف نظرتى مجموعة من الاشجار لا يكاد يظهر فوقها الا جانب ضئيل من صفحة السماء كان الهلال قد لاح

فيها منذ قليل ثم لم يلبث أن غاب تحت الغمام . كانت السماء قد أمطرت من جديد وكانت الاغصان لاتزال

تقطر ماء .

حدثت نفسى وأنا أعيد غلق النوافذ :

- هذا جو لايدعو للبهجة .

اما هذا التأمل الخاطف سرت الرعدة في نفسى اكثر مما سرت في جسدى فأعدت الحطب الى المدفأة

وازكيت النار وسعدت عندما عثرت في فراشى على جرة ماء دافىء لاشك أن الانسة فيردور دستها فيه بحس

رعايتها وعنايتها .

بعد برهة لاحظت انى نسيت وضع حذائى خارج الحجرة فنهضت وخرجت للحظة الى الممر رأيت

في الطرف الاخر من الدار الانسة فيردور كانت حجرتها تقع فوق حجرتى تبينت ذلك من خطواتها الثقيلة

التي شرعت بعد قليل تزلزل السقف من فوقى ثم اطبق صمت عميق وبينما كنت استغرق في النوم رفعت

الدار مرساتها لتجتاز رحلة الليل البحرية .

استيقظت مبكرا على صوت ضوضاء صادرة من المطبخ وكان أحد ابوابه يفتح على نافذتى مباشرة • وعندما دفعت مصراعى النافذة سعدت برؤية سماء صافية أما الحديقة التى لم تكن قد جفت تماما من آثار وابل مطر حديث فكانت تتلألأ بينما يميل الجو الى الزرقة • وعندما هممت بإغلاق النافذة اذا بى أرى طفلا ضخما يخرج من بستان الخضراوات ويهرول نحو المطبخ كان من العسير بحديد عمره لان وجهه يبدو اكثر من جسمه بثلاث او اربع سنوات • كان مشوها معوجا وساقاه الملتويتان تجعل مشيته غريبة فهو يتقدم بانحراف او يسير قفزا كأنما تلتوى ساقاه كلما سار خطوة • • كان هو كازيمير تلميذ القس وكان يلزمه كلب ضخم يثب معه ويحتفل به كان الصبى يحاول ان يحمى نفسه من مغبة هوسة الكلب المربكة ولكنه ما ان كان يبلغ المطبخ حتى اوقعه الكبل فهوى في الوحل • وهنا هبت اليه سيدة بدينة قامت بأنهاضه وهى تقول :

آه هل يرضى اللهعما تصنعه بنفسك ! • • وكم نصحناك بترك ترنوفي العربة • • هيا ! تعال من هنا لى أنظفك •

وسحبته الى المطبخ في هذه اللحظة سمعت طرقا على باب حجرتى خادمة تحمل ماء ساخنا للاغتسال بعد ربع ساعة رن الجرس معلنا موعد الفطور وعندما دخلت حجرة الطعام قال القس وهو يتقدم نحوى :

- مدام فلوش أعتقد أن ضيفنا الطيب قد وصل

كانت مدام فلوش تنهض من مقعدها ولكنها لم تبدو أطول منها وهى جالسة إنحنيت أمامها بشدة فحيتنى بشكل خاطف ربما تكون قد تلقت في فترة من حياتها ضربة قوية فوق رأسها فظل الرأس غائرا بين كتفيها بطريقة لاتعالج وكان السيد فلوش قد وقف الى جوارها مادا يده مرحبا بى • كان العجوزان متماثلين في الطول والملبس والسن والجسم • • ظللنا لحظات نتبادل التحيات والمجاملات المتشابهة ونتحدث في وقت واحد ثم ساد صمت رهيب عندما وصلت الانسة فيردور تحمل إبريق الشاى

قالت مدام فلوش التى لم تستطع ان تدير رأسها فتوجهت الينا بكل نصفها العلوى :

- صديقتنا الانسة أوليمب كانت تتحرق لتعرف هل هنئت في نومك وهل أراحك الفراش
- فأجبت بأننى نمت هائنا حقا وأن جرة الماء الدافىء التى وحدثها في الفراش أفادتني كثيرا

خرجت الانسة فيردور بعد أن قدمت لى التحية :

- في الصباح الم تزعجك ضوضاء المطبخ ؟

كررت النفى فقالت مدام فلوش :

- يجب ان تقدم شكواك أرجوك لان مامن أمر أسهل علينا من ا، نعد لك كحجرة أخرى • •

ودون أن يقول السيد فلوش كلمة كان يهز رأسه بانحراف ويؤيد بأبتسامة كل عبارة تنفوه بها زوجته

فقلت "

- أننى أرى جيدا أن الدار رحبة ولكننى أؤكد لكم أننى لايمكن أن القى مقاما خيرا من مقامى هنا
- قال القس :
- السيد فلوش وزوجته يحبان تدليل ضيفهما

جاءت الانسة أوليمب بصمحين خبز مقدد دفعت أمامها ذلك الكائن الذى كنت قد رأيته ينقلب على
رأسه منذ قليل جذبه القس من ذراعه قائلا :

- هيا ياكازيمير أنت لم تعد طفلا صغيرا تقدم لتحية السيد لاكاز كما يفعل الرجال مد يدك أنظر أمامك
• التفت القس نحوى وقال كأنه يجد له العذر :
- لم نألف بعد عادات المجتمع

احرجنى حياء الطفل فسأت مدام فلوش متجاهلا المعلومات التى أمدنى بها القس بالامس :

- أهو حفيدك؟

اجابت قائلة :

- حفيد شقيقتى •• سترى فيما بعد شقيقتى وزوجها أى جديه

حاولت الانسة فيردور أن تفسر موقف الطفل فقالت :

- لم يكن يجرؤ على العودة لانه كان قد لوث ثيابه بالوحل وهو يلعب مع تيرنو

فقلت وأنا التفت نحو كازيمير ببشاشة وود :

- ما الطفه من لعب كنت أنظر من النافذة عندما اوقعك الكلب ••• أو لم يصبك بسوء ؟

قال القس موضحا بدوره :

- يجب أن نخبر السيد لاكاز أن الطفل لايجيد الاتزان تماما

ياإلهى لقد لاحظت ذلك بنفسى دون حاجة اى توضيح وفجأة أصبح هذا القس الضخم ذو العينين
المختلفتين اللون بغيضا الى نفسى •

لم يجب الطفل على سؤالى غير ان وجهه أحمر خجلا • ندمت على سؤالى فربما يكون قد حمل تلميحا
الى عاهته • كان القس قد غادر المائدة بعد أن فرغ من تناول حسائه فاخذ يذرع الحجرة ذهابا وإيابا وكان
عندما يمسك عن الكلام يضغط على شفتيه بحيث تصبح شفتيه العليا نتوءا اشبه بشفه الكهل الأدرم •• توقف
خلف كازيمير بينما كان الاخير يفرغ قدحة قال القس :

- هيا هيا •• أيها الفتى ابن زهير في انتظارنا •• فنهض الفتى وخرج الاثنان

وما أن إنتهى الفطور حتى بادرنى السيد فلوش بقوله :

- تعال معى الى الحديقة أيها الضيف الشاب لتزدنى من أخبار باريس

كانت لغة السيد فلوش تزدهر مع الفجر ودون أن ينصت كثيرا الى أجاباتي أخذ يسألنى عن صديقه جاستون وعن دراساتي . . لم أحدثه الا عن مشروعاتي الادبية بالطبع ولم أكشف له عن نفسى الا الجانب الخاص بالسوربون ثم شرع يقص تاريخ الكارفورش الذى لم يبرحه تقريبا منذ خمسة عشر عاما وتاريخ الحديقة وتاريخ القصر وأرجأ الى حين تاريخ الاسرة التى كانت تسكن القصر قبله ولكنه بدأ يروى لى كيف حصل على مخطوطات القرية الثامن عشر التى يمكن ان تهمنى في بحثى . . كان يسير الى جوارى في خطى قصيرة مسرعة ولاحظت أن سرواله منخفض بحيث يكاد يسقط على قدمه ولكنه مرفوع من الخلف الى أعلى الحذاء ولا أدرى كيف استطاع ان يحافظ عليه في هذا الوضع لم أعد انصت اليه الا بأذان شاردة فكان تفكيرى خاملا من تأثير الجو الغائر ويفعل ماشبه التخدير النباتى وبينما كنا نسير على هذه الحال في طريق تحف به أشجار الكستناء العالية التى تشكل قبوا فوق رؤوسنا أدركنا اخر الحديقة . وهناك وجدنا مقعدا يحميه من الشمس سائر من الاشجار الظليلة فدعانى السيد فلوش الى الجلوس وقال فجأة :

- هل اخبرك القس سانتال بأن صهرى بهشىء من ال . . . ؟

لم يكمل ولمس جبهته بسبابته :

بلغ ذهولى حدا لم أجد معه ما أجيب به فاستطرد قائلا :

- نعم البارون دى سانت أوريول صهرى ربما لم يخبرك القس بذلك كما لم يخبرنى ولكنى أصبحت على علم بأنه يعتقد ذلك كما اعتقد . . . وبالنسبة لى ألم يخبرك القس بأن بى شيئا من ال . . .
- أوه سيدى فلوش كيف تظن أن . . .

فقال وهو يربت على يدي بلا كلفه:

- ولكن يا صديقى الشاب لو صح ظنى فأنى اجد شيئا طبيعيا ماذا تنتظر ؟ لقد إعتدنا هنا أن نعتزل العالم نكاد نكون بمنأى عما يجرى فيه لاشيء يحمل إلينا ال . . . التغيير كيف أعبر ؟ نعم لقد كنت لطيفا اذا جئت لزيارتنا .

فلما حاولت ان أتى بحركة عاد يقول :

- أعيدها ثانية كنت لطيفا اذا جئت وسأقول هذا المساء لصديقى القدير دينوس وقد يتراءى لك أن تطلعننى على مايجيش تصدرك من موضوعات وما يضطرب له فكرك من مسائل وما يستحوذ على إهتمامك من مشكلات . . أنا على ثقة أننى لن ادرك شيئا مما ستقول بماذا كنت أستطيع أن أجيب ؟ رحت أخط في الرمال بطرف عصاى فاستطرد يقول :

- كما ترى فقدنا إتصالنا بالعالم الخارجى تقريبا كلا كلا لاتعترض فلن يجدى ذلك شيئا . البارون اضخم ولكنه مدعى بحيث يحاول أن يدارى صممه وهو يفضل أن يتظاهر بالسمع على أن يطلب من محدثه

أن يرفع صوته • أما بالنسبة لى فأننى فيما يتعلق بالأفكار التى تشغل العالم اليوم فيبدو لى أننى لا اقل عنه صمما ومع كل فأننى لا أجد غضاضة فى ذلك بل لا أحاول أن أبذل مجهودا كبيرا حتى أفهم • إنتهى الامر بى من جراء عشرينى لما سيون ومسويه الى الاعتقاد بأن المشكلات التى كانت تؤرق هاتين العقليتين تعادل فى جمالها وأهميتها تلك المشكلات التى كنت شغوبا بها فى مطلع شبابى • • • مشكلات ربما لم تكن تفهما هاتين العقليتين • • كما أننى لا أفهم تلك المشكلات التى تستهويك اليوم • لذلك لو تكرمت يازميل المستقبل فأننى أفضل أن تحدثنى عن دراستك مادامت هى أيضا دراستى ولأتواخذنى إذا لم أسألك عن تحب من الموسيقيين والشعراء والخطباء ولا عن نظام الحكم الذى تفضله •

نظر الى ساعة مستديرة تتعلق بشريط أسود وقال وهو ينهض واقفا :

- فلنعد الآن إننى اعتبر نهارى ضائعا إن لم أباشر عملى فى العاشرة فمددت له ذراعى فتناولها ! ولما كنت

أتمهل فى سيرى أحيانا من أجله كان يقول :

- فلنسرع ! فلنسرع ! ما أشبه الأفكار بالازهار • • • كانت مكتبة الكارفورش تتألف من حجرتين يفصل بينهما ستار بسيط وكانت إحداهما شديدة الضيق يصعد المرء اليها بواسطة ثلاث درجات وكان السيد فلوش يعمل فيها وهو يجلس الى مكتب أمام نافذة لاتطل على شىء بسبب وجود دردارة تمد أغصانها حتى تلامس زجاج النافذة • وكان يوجد على المكتب مصباح عتيق له خزان يعلوه غطاء اخضر منالخرزف وتحت المكتب حشية لتدفئة القدمين • وفى أحد الاركان موقد صغير وفى الركن الاخر مكت اخر محمل بالمعاجم وبينهما خزانة تستخدم كرف لحمل الاوراق أما الحجرة الثانية فقد كانت فسيحة بها كتب تغطى الجدار وتصل حتى السقف وكان بها نافذتان ومكتب كبير فى الوسط

قال لى السيد فلوى

- هنا سيكون مقامك

فلما صحت معترضا قال :

- كلا ، كلا أنا إعتدت على الخلوة والحق أقول أننى أجد فيها راحتى بلا غضاضة وإذا شئت أسدلنا الستار حتى لا يضايق أحدنا صاحبه

- قلت معارضا : أوه ! ليس من اجلى أنا فاذا كنت اشعر حتى الان بضرورة الانفراد أثناء العمل فأننى لا

عقب مقاطعا :

- أياه حسنا ! سنتركه إذن مرفوعا ومن ناحيتى سأجد متعه كبيرة فى أن المحك بطرف عينى

وبالفعل ما كنت أرفع رأسي عن عملي في الايام التالية الا والتقى بنظرة الرجل الطيب الذي يبتسم
وهو يهز رأسه خشية أن يضايقتني أو يحول عينية عني ويتظاهر بالانغماس في القراءة وسرعان ما أهتم
فوضع تحت تصرفي كل ماأحتاجه من كتب ومخطوطات وكان معظمها موجودا على رف الحجرة الصغيرة
وكانت تفوق في عددها وأهميتها ماذكره لي الاستاذ دينوش وكان لابد لي على الاقل مناسبوع كامل لكي أنقل
اليانات القيمة التي اعثر عليها بين ثناياها واخيرا فتح السيد فلوش خزانة غاية في الصغر كانت بجوار اللرف
واخرج منها نسخة الكتاب المقدس الشهيرة التي كان يملكها بوسويه والتي كان نسر مدينة موقد خط عليها امام
الايات التي اصبحت متونا تواريخ اللقاء العظمت التي اوحى له بها تلك الايات ٠٠٠ ودهشت لأن البير دينوش
لم يستفد من هذالبيانات في ابحاثه ٠٠٠ ولكنى علمت من السيد فلوش أنه لم يحصل على هذا الكتاب الا منذ
وقت قصير

أستطرد قائلا :

- لقد كتبت فعلا مذكرة بشأنها وانى أهني نفسي الآن لأنى لم أخبر أحدا بها فستفيدك في رسالتك بما
فيه من جدة وطرافة

إعترضت مرة أخرى بقولى :

- كل ما لرسالتى من قيمة وفضل أدين به لفضلك فهل تتكرم ياسيد فلوش وتقبل منى أن أهديها
لشخصك كدليل بسيط على عرفانى بالجميل ؟

ابتسم ابتسامة يشوبها الحزن :

- عندما يكون الانسان موشك على فراق الدنيا فإنه يبتسم راضيا تلك مايحقق له بعض الخلود

وجدت انه ليس من الذوق في شىء أن أتمادى في هذا الشأن وإذ به يستطرد بقوله :

- الآن ٠٠ عليك بالاستيلاء على المكتبة ولاتكثرت بوجودى الا عندما تريد أن تستفسر منى عن
شىء ٠ خذما تحتاجة من اوراق ٠ الى اللقاء ٠

وبينما كنت انظر اليه مبتسما وأنا اهبط الدرجات الثلاث اشار بيده قائلا :

- الى اللقاء !

فقلت الى الحجرة الكبيرة الاوراق التي تمثل باكورة عملى ٠ وبدون أن ابتعد عن المكتب الذى كنت
اجلس اليه تمكنت من رؤية السيد فلوش في حجرته الصغرى وتحرك لحظات يفتح بعض الادراج ثم يغلقها
من جديد ويخرج بعض الاوراق ثم يعيدها الى مكانها متظاهرا بالانشغال – وتبين لى حقا انه كان في غاية
الاضطراب أو على الاقل محرجا بسبب وجودى فأنا اقل خلل في تلك الحياة المنظمة غاية التنظيم يمكن أن
يخل باتزان التفكير ٠٠٠ واخيرا إستقر الى مكتبه وغاص حتى منتصف ساقية في الحشية ولم يعد يبدى
حراكا ٠

بالنسبة لى كنت أظاهر بالانهماك في العمل الا انى وجدت مشقة كبرى في السيطرة على تفكيرى • •
بل لم أحاول ذلك فقد كان تفكيرى مركزا على الكارفورش وكأنه يحوم حول برج قصر محاولا اكتشاف
مدخلة كل ماكنت احاول ان اقنع به نفسى هو انى فطن ذكى وكنت احدث نفسى قائلا :

صديقى ايها الروائى ستراك وانت امام التجربة الوصف !آه ، آه ! ليس الوصف هو المهم الان وإنما
المهم هو الكشف عن المخبر تحت المظهر • لو غفلت عن ايه حركة أو أیه أو لفته دون أن تجد لها التفسير
انفسى والتاريخى الكامل فأنت لا تعرف مهنتك

نظرت نحو السيد فلوش وكان يعرض لى من جانب فرأيت أنفاضخما لايعبر عن شىء وحاجبين
كثيفين وذقنا حليقا لايف عن الحركة كان صاحبة يمضغ تبغا • • وفكرت في أن ما من شىء يضيف
الغموض على وجه الانسان مثل قناع الطيبة الذى يغلفه

وإذا بجرس الغداء يفاجئنى وأنا غارق في هذه الخواطر •

-٣-

على هذا الغداء قدمنى السيد فلوش دون سابق انذار الى السيد سانت أوريول وزوجته • وكان في
امكان القس أن يخطرني بذلك مساء امس • وأتذكر اننى فيما مضى شعرت بنفس الدهشة عندما شاهدت لأول
مرة في حديقة النباتات طائر النمام او طائر الغواص • ولا أعرف ايهما كان اكثر غرابة من الاخر البارون
ام البارونة فهما زوجان متماثلان مثل السيد فلوش وزوجته • ولو قدر لهما أن يوضعا في أحد المتاحف •
لوضعا متجاورين بلا تردد حلف واجهة زجاجية قريبا من " الانواع المنقرضة " شعرت نحوهما في البداية
بأعجاب غامض من ذلك الذى نشعر به امام التحف الفنية الرائعة او امام عجائب الطبيعة والذى يتركنا للهولة
الاولى ذاهلين عاجزين عن تحليل • ولم اتمكن كذلك من تحليل انطباعى الا بعد نظر وتأمل • •

كان البارون نرسي سدى سانت – أوريول يرتدى سروالا قصيرا وينتعل حذاء بأبزيم بارز ورباط
عنق من مادة الموسيلين بينما تفاحى عنقة تماثل ذقنه في بروزها بحيث تخرج من فتحة الياقة محاولة التخفى
تحت ثنايا وشاح منتفخ من الموسيلين هو الاخر وكان ذقنه عندما يتحرك فكه يبذل مجهودا كبيرا ليتصل بانفه
الذى يحاول تحقيق ذلك وإحدى عينية كانت مسدودة تماما أما الاخرى فكان طرف الشفه يهفو اليها بينما تتجه
نحوها كل ثنايا الوجه فقد كانت تومض في صفاء قابضة خاف الوجنة كأنما تقول حذارى أنا وجيدة ولكن مامن
شىء يفلت منى •

اما زوجته مدام دى سانت – أوريول فكانت تختفى تماما في فيض من نسيج الدانتيل الزائفة وكانت
يداها الطويلتان المثقلتان بالخواتم الضخمة ترتجفان وهما قابعتان في جوف كميتها • أما وجهها فقد كان متندرا
في شبه كساء طويل من الحرير الاسود المبطن بشرائط من الدانتيل البيضاء تحت الذقن عقدت عصابتان من
الحرير اكتسبتا اللون الابيض من أثر المسحوق المتساقط من وجهها الذى اسرفت في ذره بطريقة فظيعة •

وعندما دخلت نهضت واستقرت امامى بجانبها وطرحت رأسها الى الوراء ثم نطقت بصوت مرتفع خال من
النتغيم :

- جاء زمن ياشقيقتى كان الناس فيه اكثر احتراما وتقديرا لإسم سانت - أوريول •

على ساخطة على من ؟ ٠٠٠ لابد وانها تريد أن تشعرنى امام شقيقتها أننى لا أقيم عند ال فلوش لانها
واصلت وهما تميل برأسها جانبا في لطف واضح وترفع يمينها تحدى قائلة :

- يسر البارون كما يسرنى أن نستقبلك ياسيدى على مائدتنا طبعنا قبلة على خاتم بيدها ووقفت بعد
القبلة وأنا أشعر بالخلج لأن وضعى بين آل فلوش وآل سانت - أوريول بدا محرجا • الا أن مدام فلوش لم
يبد انها اعارت قول شقيقتها اى اهتمام أما البارون فكانت أرتاب في حقيقة أمره على الرغم من انه كان لطيفا
معى • وطول اقامتى في الكارفورش لم يستطع احد أن يقنعه بأن ينادينى بغير السيد لاسى كازه الامر الذى
كان يتيح له ان يؤكد انه طالما رأى أهلى في النويلورى وبخاصة عمى الذى كان يلعب معه لعبة الورق •

- آه ! كان ظريفا ! كان كلما القى بورقة رابحة صاح بأعلى صوبه دومينو !

أحاديث البارون كانت كلها على هذا المستوى تقريبا ٠٠٠ وعلى المائدة كان هو الوحيد الذى يتحدث
وبعدها وما ان ترفع المائدة كان يخلد الى الصمت الشبيه بصمت المومياء ٠٠٠ وعندما غادرنا حجرة الطعام
إقتربت منى مدام فلوش وهى تهمس قائلة :

- هل يسمح لى السيد لاكاز بحديث قصير ؟

فبدا لى أنها لم تكن ترغب في أن سستمع أحد الى هذا الحديث لانها جذبتنى الى ناحية بستان
الخضراوات وهى تقول بصوت مرتفع أنها تريد أن ترينى صفا من الاشجار المعروشة على الجدار •

ما أن تأكدت أن أحدا لايسمعها بدأت حديثها قائلة :

- حديثى معك خاص بحفيدنا •• أنا لا أريد أن أبدو في نظرك منتقدة لتعليم القس سانتال ولكنك وأنت
تغوص في مصادر الثقافة نفسها (هكذا قالت) يمكنك أن تقدم لنا النصيح في هذا الشأن •

- قولى ياسيدتى •• وثقى في إخلاصى •

- إذن اسمع اخشى ان يكون موضوع رسالته

بالنسبة لصبى مثله له شىء من التخصص •

إستفسرت بشىء من الحرج :

- أیه رالة ؟

- الرسالة التى يتقدم بها لشهادة البكالوريا

عدت أقول وقد آثرت الا أندesh لشيء :

- آه ! بالضبط ٠٠ وماموضوعها ؟

- هو هذا ٠٠ الاب يخشى أن يكون من شأن الموضوعات الادبية أو الفلسفية البحتة أن تزيد من حدة هيام عقلية صبي يميل بطبعه للحلام ٠٠ هذا جانب من مخاوف الصبى ولذلك فقد حدا بكازمير الى اختيار موضوع تاريخى .

- ولكن هذا الرأى ياسيدتى يقوم على اساس قوى والموضوع الذى وقع عليه الاختيار ؟ ماهو ؟

- أرجو المعذرة فأنا أخشى أن أحرف الاسم: أبن رشد "

- القس طبعا لديه من الأسباب ماجعله يختار هذا الموضوع الذى يبدو لأول وهله موضوعا متخصصا بعض الشيء

- إختاراه معا ٠ أما عن الاسباب التى يذكرها القس ليبرر الموضوع يتضمن جاذبية قصيصته من شأنها أن تثير إهتمام كازيمير الذى يشرد كثيرا ثم يبدو أن السادة الممتحنين يعلقون على هذا أهمية كبيرة فالموضوع لم يسبق أن تناوله احد من قبل
- فعلا -

- طبعى أنالمرء لكى يطرق موضوعا لم يسبق لغيره أن تناوله يجد نفسه مضطرا الى الخوض في طرق غير ممهدة

- طبعا

- الا أنى أعترف بأن هناك مايدعو للقلق ولكنى لن أكون مغالية !

- سيدتى أتوسل اليك أن تنقئ في أن أصدق إخلاص ورغبتي في خدمتك لاحدود لهما

- حسن ! لا أشك في أن كازيمير لديه من الكفاءة ما يؤهله في القريب من التفوق في إمتحان رسالته ولكنى أخشى أن تكون رغبة القس في التخصص وهى رغبة سابقة لأوانها تجعله يهمل الى حد ما الثقافة العامة كالحساب والفلك على سبيل المثال ٠٠

فسألت وأنا في ذهول :

- وما رأى السيد فلوش في كل ذلك ؟

- آوه ! السيد فلوش يؤيد كل مايفعل القس أو يقول .

- والوالدان ؟

- لقد عهدا الينا بالصبى

قالتها بعد تردد ما ثم أضافت وقد توقفت عن السير :

أرجوك ياسيد لاكاز أن تتكرم بالحديث الى كازيمير لكى تطلع على أمره دون أن يبدو أنك تقصد ذلك ٠٠
وليكن في غير وجود القس فقد يرتاب في الأمر وأنا على ثقة أن بوسعك ٠٠٠

- بكل سرور ياسيدتي •• لن أعدم الوسيلة لاختلاق سبب للخروج مع الحفيد • سيقوم مثلا باصطحابي في زيارة لركن ما من أركان الحديقة •••
- هو يبدو بداية خجلا مع من لايعرفهم الا أن الثقة من طبعه
- لأشك في أننا لن نلبث أن نصبح صديقين حميمين

وبعد قليل جمعتنا وجبة العصر مرة أخرى فقالت تخاطب كازيمير :

- كازيمير عليك باصطحاب السيد لاكاز ليرى المحجر فأنا واثقة من أنه سيثسير إهتمامه

ثم قالت وهي تقترب مني :

- إنطلقا بسرعة قبل أن ينزل القس فقد يرغب في مرافقتكما وعلى الفور خرجت الى الحديقة يقودني الصبي وهو يعرج فبدأت قائلاً :
- هذا وقت الفسحة

فلم يجب فاستطردت قائلاً :

- الا تفعل شيئاً بعد تناول طعامالعصر ؟
- آوه : بلى ولكن اليوم لم يعد لدى ما انسخه
- وما الذى تنسخه ؟
- الرسالة
- آه !

وبعد محاولات من الاستفسار فهتأت هذه الرسالة هي عمل خاص بالقس وهو يستغل الصبي في تبويضها ونسخها لوضوح خطه وسلامته • وكان الصبي يقوم بكتابة أربع نسخ من الرسالة في أربع كراسات مغلقة يملأ منها كل يوم بضع صفحات • الا أن كازيمير أكد لى أنه يجد متعته في قيامه بعملية النسخ •

- ولكن لماذا تكتب أربع نسخ ؟

- لأنى أجد مشقة في الاستظهار

- وهل تفهم ما تكتبه؟

- احيانا ،واحيانا اخري يشرح لي القس او يقول انني سوف افهم عندما اكبر .

كان القس بكل بساطة قد جعل من تلميذه ما يشبه سكرتيراً ناسخاً ، فهل كان هذا هو تصدره لو اجبه؟

شوت بقلبي يفيض حسره ،فقررت بلا تردد ان ادخل معه في نقاش مثير ،وكان سخطي قد جعلني اسرع الخطى علي غير وعي مني ،فكان كازيمير يجد مشقة في متابعته ،ولا حظت انه غارق في عرقه ، فممدت له يدي فاستبقاها في يده ،وراح يوج الي جانبي بينما ابطات انا من مشيتي .

- هل الرسالة رسالتك؟

فاجاب من فوره :

- آوه ! كلا.

ولكن عندما تماديت في اسئلتي ادركت قلة معلوماته ،وولا شك في انه لاحظ دهشتي ،فاضاف قوله:

- اقرا كثيرا.

قال كمسكين يقول: انا املك ثيابا اخري!

- وماذا تحب ان تقرا؟

- كتب الرحلات.

حول تحدي نظرة مسكونة بالثقة بدلا من الحيرة وقال:

- سافر القس الي الصين ، هل تعرف ذلك؟

كانت لجنة تكشف عن اعجاب باستاذة ، واحترام زائد له.

بلغنا المكان الذي اسمته مدام فلوس "المحجر" ، فوجدته مكانا مهجورا منذ زمن طويل ، اشبه بمغارة تحف بها احراس تحجبك عن الانظار . فجلسنا فوق حجر فاتر بتاثير حرارة الشمس التي كانت قد شرعت في المفيب . وكانت الحديقة تنتهي عند هذا المكان دون ان يحدها سياج او جدار ، وكنا قد مررنا يسارا بطريق منحدر بانحراف يقطعون حاجز صغير . وكان انحدار الطريق من الشدة بحيث كان حماية طبيعية للحديقة . سألت كازيمير !

- وانت يا كازيمير ، هل سبق وان قمت برحلات ؟

لم يجب ، وطأطأ رأسه .. كان الوادي غارقا في الظلام تحت اقدامنا ، وكانت الشمس تحف بالتل الذي يحول دون استرسال الطبيعة اماننا . كانت توجد اشجار كستناء وبلوط تعلو كلا جيريا صغيرا انتشرت فيه اوكار الارانب . كان المنظار رومانسيا يتميز عن سائر المنطقة المتسمة بالرنابة .

وفجأة صاح كازيمير :

- انظر الي الارانب .

وبعد برهة ، اضاف وهو يشير باصبعه الي الاشجار :

- ذات يوم ، صعدت بصحبة سيدي القس .

وعند عودتنا ، مررنا ببركة تغطية النباتات المائية ، فوعدت كازيمير بأن اعد له سنارة لكي ادربه علي صيد الضفادع . هذه السهرة الاولى لم تختلف عما تلاها وان لم تمتد بعد التاسعة ، ولا حتي عما سبقوة: لان اصحاب الدار كانوا يراعون مبدأ عدم الاسراف ، في اثناء العشاء يشعل النار في الموقد . وكان يوجد مصباح كبير علي طرف منضدة من الخشب المطعم ، يضئ القطاع الذي يتناقل فيه كل من البارون والقس ، كذلك كان هذا المصباح يضئ المائدة الصغيرة المستديرة التي كانت النساء يلعبن عليها لعبة الدورق . وبأت مدام دي سانت - اوريول الحديث فقالت :

- السيد لاکاز الذي اعتاد له باريس ومسراته ، سيجد ولا شك في لهونا شيئا من الخمول .

كان السيد فلوس يجلس في مقعد وثير في احد اركان المدفأة ، بين النوم واليقظة . اما كازيمير ، فقد كان يسند مرفقيه الي المنضده ، واضعا راسه بين يديه ، وقد تدلت شفته السفلي وسال منها اللعاب . وعلي هذه الحال ، كان يقرأ في كتاب "جولة حول العالم" . تظاهرت مراعاة للياقة والذوق بالاهتمام البالغ بلعبة النساء . وكان من الممكن ان يتم اللعب بالاستغناء عن احد اللاعبين الاربعة كما يحدث في لعبة "الوست" الا انه من الافضل ان تؤدي بأربعة لاعبين . ولذلك فما ان اقترحت الاشتراك في اللعب ، حتي سارعت مدام دي سانت - اريول بقبولي زميل لها . وفي الامسيات الاولى تمكن الفريق المنافس من هزيمتنا ، فسعدت مدام فلوس ، وكانت بعد كل فوز تربت علي ذراعي بيدها النحيلة المكسورة بقفاز بلا اصابع . وكان يسود اللعب

الكثير من حركات التهور والجرأة واعمال المكر والدهاء والتفنن والمهارة . وكانت الانسة اوليمب مترثية في لعبها ومثروية .

وفي بداية كل دور كنا نحدد النقاط الازمة لتحقيق الفوز ، وبعد ذلك كان كل لاعب يقام ويزايد حسبما يكون تحت يده من اوراق ، مما يتيح فرصة للتغريير والايهام . وكانت مدام دي سانت- اوريول تعام في تهوور وجرأة وقد لمعت عيناها ، واحمرت وجنتاها وارتعد زقتها ، وعندما كانت تجد بين يديها اوراق رابحة ، وكانت تركلني بقدميها من تحت المنضدة ، وكانت الانسة اوليمب تحاول ان تصمدا امامها ، ولكنها لا تلبث ان ترتبك عندما تمع صوت العجوز الحاد يصيح فجأة:

- فيرودور ، انت تكذبين .

عند انتهاء الدور الاول اخرجت مدام فلوس ساعتها ، وكان الوقت قد حان . ثم نادى قائلة:

- كازيمير ، هيا ، حان الوقت.

فيحاول الصبي في مشقة ان يقاوم نعاسة وينهض ، ويقدم للرجال يدا مسترخية للتحية والسلام ، ويوحي جبينه للنساء ليتلاقى قبلاتهن ، ثم يخرج وهو يتعثر في مشيته .

وعندما كانت مدام دي سانت- اوريول تدعونا لجولة الثأر ، يكون اول دور علي وشك الانتهاء. كان السيد فلوس يأخذ احيانا مكان صهره ، ولم يكن السيد فلوس ولا القس يعلنان عن العابها ، ولا يسمع لها سوي صوت النرد داخل القرطاس او فوق المنضدة. اما السيد دي سانت- اوريول فكان يناجي نفسه في مقعده الوثير، او يترغم بصوت منخفض ، الشظايا ، فتهب الانسة فيرودور وتؤدي فوق البساط واما كانت مدام دي سانت- اوريول تسميه برقصة الشظايا.

كان السيد دي سانت اوريول يترك البارون والقس في تنافسهما ولا يغادر مقعده الوثير، وكنت وانا في مكاني استطيع ان اراة، لا يكون نائما كما يبدي، وانما هازا رأسه في الظلام . وفي اول امسيته حدث ان توهج اللهب فأضاء وجهه ، فتبنيبت انه كان يبكي .

وعندما كان ينتهي اللعب في التاسعة والربع، كانت مدام فلوس تطفئ المصباح ، وتقدم الانسة فيرودور باشعال شمعتيه تثبتهما علي طرف طاولة اللعب.

وكانت مدام دي سانت- اوريول وهي تضرب زوجها علي كتفه بالمروحة توصي القس قائلة:

- ايها القس، لاتجعله يسرف في السهر.

اعتقدت منذ الليلة الاولى انه من دواعي اللياقة تلبيه دعوة النساء تاركا اللاعبين لتنافسهما والسيد فلوس تأمرته . وكان آخر من يصعد منا. وفي الدهليز حمل كل منا شمعدانا. وقامت النساء بتحتيتي كما يفعلن في الصباح . كنت ادخل حجرتي فلا البث ان اسمع اليدين وهما يصعدان. ثم سرعان ما يطبق الصمت. الا ان النور يظل يتسرب من تحت الابواب . فاذا اضطرت للخروج الي عمر، فقد اصادف مدام فلوس او الانسة فيرودور يفرغان من عمل ما. وبعد ذلك يظن المرء ان كل الاضواء اطفأت ، ولكنه كان يري طاقة من الزجاج تستمد نورها من ضوء الدهليز ولا تفضي اليد ، وبداخلا مدام دي سانت- اوريول في صدره خيال ظل وهي ترتق بعصي الثياب.

.....

(٤)

يومي الثاني في الكارفورش كان شبيها باليوم الاول، بشكل واضح ، ساعة بساعة، الا ان الفضول الذي كان يدفعني الي الاطلاع علي حياة اهل البيت كان قد زال تماما . وكان ثمة رذاذ رقيق يملا الجو منذ الصباح . فلما استحالت النزهة، وكان حديث النساء يخلو من الدفء والمعني مع الوقت ، شغلت ساعات النهار كلها في العمل . لم اكد اتبادل مع القس بعصي العبارات ، وكان ذلك بعد الغذاء حيث دعاني الي تدخين سيجارة علي بعد خطوات من حجرة الجلوس في مكان يشبه مستودعا كان يطلق عليه اهل الدار تعظيما للتويشة ، وكانوا يضعون فيه مقاعد الحديقة وكراسيها طوال فصل الشتاء الردي .

وعندما طرقت موضوع تعليم الطفل في شئ من الحدة قال:

- ولكني يا سيدي ، استهدف شيئا اخر من تفتيح مدارك كازيمير، بكل ما املك من علوم متواضعة ، وانا لم اعدك عن هدفي في هذا الا مرغما. هل كنت تؤيدني، وهو يوج هكذا ، لو فكرت في ان اعلمه الرقص علي الحبل؟ سرعان ما وجدت ان من واجبي ان احد من امالي . واذا كان يشغل نفسه معي بابتن رشد ، فلأنني اقوم ببحث في فلسفة ارسطو ، ففضلت ان اشركه معي في هذا العمل بدلا من ان اتهجي معه في كتاب من كتب النحو . وسواء كان هذا او ذاك ، فالمهم هو اشغال كازيمير ثلاث ساعات او اربع يوميا هل كان بوسعي ان اتجنب الشعور بالخط لو انه اضاع من وقتي هذه الساعات، دون ان يستفيد هو- كفي نقاشا في هذا الموضوع ، اعتقد. بعد ذلك القى سيجارته، وكان قد تركها حتي انطفأت. ونهض ليعود الي حجرة الجلوس. منعنتي رداءة الجو من الخروج مع كازيمير ، فاضطررنا الي ان نرجئ لليوم التالي ما كنا قد نوينا عليه في الصيد . ولكني اما خييه امال الصبي، حاولت ان اقدم وسيله اقوي للتسلية. كنت قد عثرت علي رقعة للشطرنج ، وبدأت السهرة مثل سابقتها تماما، غير انني لم اعد انصت او انظر الي شئ، فكان يجثم علي صدر شئ من الضيق لا ادري كنههم.

ما ان انتهينا من تناول العشاء ، حتي هبت ريح عاصفة ، فاوقفت الانسة فيردور اللعب مرتين، وصعدت الي الحجرات العليا لتري ما اذا كان المطر سيتسرب اليها. واضطررنا الي لعب دور الضار بدونها ، الا ان اللعب كان يخلو من الاثارة .

كان السيد فلوس جالسا في مقعد وثير منخفض بالقرب من المدفأة يهدده صوت المطر الهائل ، فينام نوما عميقا . وكان البارون جالسا امامه في مقعده يشكو ويتالم من الروماتيزم. ولما لم يجد القس منافسا يلا عبه، جعل يردد دعوته للبارون :
- سيضيع عليك دور من النرد.

ولما لم يصل معه الي نتيجة ، انصرف مصطحبا كازيمير ليرقده في فراشه ، وعندما وجدت نفسي وحيدا في ذلك المساء داخل غرفتي ، تملكني قلق لا يرحم استولي علي روحي وجسدي، واذا يضيفي يملكه الخوف. كان ثمة جدار من الانهار يفصل بيني وبين بقية العالم، فا ذبي فريسة كابوس مزعج، بعيدا اعم كل عاطفة ، بعيدا عن الحياة، بين مخلوقات غريبة لا تكاد تكون من البشر ، جمدت قلوبها وبهتت وجوهها، وكفت قلوبها عن الخفقان منذ بعيد ، فتحت حقيبة السفر ، واخرجت دليل القطارات ، وابحث عن قطار، نهرا او ليلا ، ليحملني بعيدا . اني اختنق هنا.

عندما استيقظت في اليوم التالي ، لم اكن اقل تصميميا ، الا اني وجدت منافيا القواعد الذوق واللياقة ، وان اترك المذيقين دون ان اقدم عذرا لسبب قطع اقامتي.

او لأتهور واذكر لهم انني سأتأخر اسبوعا علي الاقل عن الكارفورش ! لقد وجدتها ! سأقول لهم ان انباء سيئة تستدعيني الي باريس.ولحسن الحظ ، كنت قد تركت عنواني في باريس قل المجيء، فكان من الزوق ان يرسل بريدي كله الي الكارفورش . قلت في نفسي انها حقا معجزة اذا لم يصل حتي اليوم اي خطاب استطيع استغلاله في مراره وحذفه. علقت املتي بوصول ساعي البريد.

كان يأتي بعد الظهر بقليل، عندما تفرغ من غذائنا- فكنا لانغادر المائدة قبل ان تأتي ديلفين حاملة الي مدام فوس رزمة خفيفة من الخطابات والمطبوعات فتنولي توزبون علي الحاضرين . ولسوء الحظ حدث في ذلك اليوم ، ان كان القس سانتال مدعوا لتناول الغذاء عند عمده بلدة ليفيك، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، جاء ليتأذن من مدام فلوس ومني، ولم ادرك انه كان يسلمني الجواد والعربة.

وعلي الغذاء ، قمت بأداء الدور الذي اعددت له ، فدمدتم وانا اففض احد المظاريف التي قد متها لي مدام فلوش :

- يا الله ! ياك من مضايقة !

ولما لم يلتفت احد من اهل الدار الي صيحتي خشية احراجي ، عاودت رافعا صوتي ومتصنعا الدهشة والضيق بينها عيناى تجولان بين سطور رسالة لا اهمية لها:

- وا أسقاه!

واخيرا تجرات مدام فلوش وسألتني بلهجة يشوبها الحياء:

- ما هذا النبأ السيئ يا سيدي العزيز!

اجبت من فوري:

- اوه! لا شئ . ولكني للأسف ان يتحتم علي ان اعو دالي باريس فورا ، وهذا ما يكدرني.

عمت الدهشة كل الجالسين الي المائدة ، فجاوزت ما كنت اتوقع حتي احمر وجهي خجلا، وتجلت هذه الدهشة بداية في وجوم شامل قطعة السيد فلوش في صوت تشوبه الرجفة:

- صحيح هذا يا صديقي العزيز؟ ولكن عملك ! ولكن...ولم يستطع ان يكمل ، ولم اجد ما اجيب به ولا ما اقله ، بل انتابني شعور طفيف بالتأثر . وكانت عيناى مسطنتين علي قمرة رأس كازيمير، فرأيته وقد دس انفه في الطبق، وجعل يقطع تفاحة، اما الانسة فيردور فكان وجههما قد احمر قانيا من الغيظ.

واذا بدمام فلوش تقول بصوت منخفض:

- اعتقد ان ما ينافس الذوق يا سيدي ان تطلب منك البقاء.

فقال له مدام دي سانت -اوربول بحدة:

- لما يقدمه الكارفورش من الوان اللهو و المتعة.

فحاولت الاعتراض قائلا:

- اوه يا سيدي، ثقي تماما ان ما من شئ...

غير ان البارونة، دون ان تنصت لقولي ، صرخت بأعلي صوتها في اذن زوجها. كان يجلس الي جوارها:

- السيد لاكاز يريد ان يرحل عنا.

فقال الاصم وهو يبتسم لي:

- عظيم ! عظيم! ما اكثر سروري لذلك.

عندئذ توجهت مدام فلوش بالحديث الي الانسة فيردور:

- كيف سنتصرف .. الجواد مع القس.

تراجعت قليلا وقالت :

- المهم ان اكون في باريس صباح غد .. واذا لزم الامر ، فان قطار الليل يكفي.

فقالت مدام فلوش:

- فلتذهب يا جراسيان فورا لتري اذا كان من الممكن ان نستخدم جواد ال بوليني واخبرهم ان عليك ان

تنقل شخصا يريد ان يستقل

- قطار الساعة..

ثم قالت وهي تلتفت نحوي:

- هل يكفي قطار الساعة السابعة؟

- اوه! سيدتي، انا اسف اذا اسب لكم كل هذه المضايقات.

انتهي الغذاء في سكون ، وما ان فرغنا منه ، حتي صحبني السيد فلوش وخرجنا ، وعندما اصبحنا

وحدنا في الممر الذي يؤدي الي المكتبة ، قال:

- سيدي العزيز ، صديقي العزيز ، لا استطيع ان اصدق ، ولكنك لا تزال في حاجة الي معرفة الكثير

. هل من الممكن ان يحدث هذا ؟ياك من مضايقة ! ياك من مضايقة فظيعة!كنت انتظر ان تنتهي من المرحلة

الاولي من البحث، لأضع تحت يدك اوراقا اخري اخرجتها مساء امس ، اعترف لك اني كنت اعتمد علي هذه

الاوراق لأثير اهتمامك من جديد واستبقيك مدة اطول ، فلا بد من اطلعك الان عليها، تعالي معي- لا يزال

لديك الوقت حتي المساء ، لأنني ا اجرؤ علي طلب العون مرة اخري ، اليسا كذلك؟

امام ضيق ودر الكهل، احسست بالخلج من تصرفي ، وكنت قد اضنيت نفسي في العمل طوال نهار امس

وصباح اليوم ،بحيث لم يتوفر من الوقت الا ما يتيح ان القي نظرة عابرة علي الاوراق الاولي التي كان السيد

فلوش قد اعطاني اياها . ولكن ما ان صعدنا الي خلوته حتي بادر يفتح احد الاوراج واخرج من داخله في

حركه غامضة لفافة يغلفها نسيج من قماش يثبته خيط رفيع، وتحت الخيط دست بطاقة علي هيئة قائمة

بالاوراق في الداخل ومصادرها، فقال:

- خذ اللفافة كلها ، وليست كل ما تحتويه بالطبع من اوراق هامة ولكنك تستطيع ان تستخرج من بينه

ما يهمك بسرعة.

وبينما كان يفتح بعض الادراج الاخري ، ويغلقها ويتظاهر بالانشغال ، نزلت الي المكتبة حاملا حزمة

من الاوراق التي فضضتها فوق المنضدة الكبيرة.

كانت بعض الاوراق فعلا تتصل ببحثي ، ولكنها كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن ، وكان اغلبها مكتوبا

بخط السيد فلوش نفسه ومتصلا بحياة ماسيون ولذلك فلم تكن تعينني في كثير.

اصحي حان فلوش المسكين كان يعتمد علي هذه الاوراق ليستبقيني؟

فنظرت اليه ، كان في ذلك الوقت قد غار في مقعده وامسك دبوسا يفتح به في دقة وصبر ثقب وعاء

صغير لصب السندروسي. وما ان فرغ من هذه العملية ، حتي رفع نظره فالتقي بنظري . واذا بابتسامة ودية

تغير وجهه فنهضت لكي احادثه ، واتكأت علي ذراعي مقعده في مواجهة جسمه الضئي وقلت اخاطبه:

- سيدي فلوش ، لماذا لا تأتي الي باريس ؟ انه ليسرنا ان نلقاتك هناك.

- في مثل عمري ، يكون الانتقال عسيرا او باهظ التكاليف .

- هل تأسف علي حياة المدينة؟

فقال وهو يرفع يديه:

- اه ! كنت اتوقع ان يكون اسفي عليها اكبر . ان الوحدة في الريف ، بتدر قاسية لمن يحب الحديث،

ولكن سرعان ما يعتادها .

انت اذن لم تأت للقامة في الكارفورش عن ميل او رغبة؟

قام من مقعدة ونهض واقفا ، ثم وضع يده فوق كمي في الفة وقال :

- كان لي في المعهد بعض الزملاء الذي اعتر بهم ، ومنهم استاذك البير دينوس، واعتقد اني كنت

علي شك ان اشغل مكانا بينهم .

لاح لي ان يريد ان يفيض في الحديث ، ومع كل وقفه كنت لا اجرؤ علي سؤاله مباشرة ، وقلت:

- هل هي مدام فلوش التي كان يستهويها الريف الي هذا الحد؟

- كلا، ومع ذلك فقد جئت الي الريف من اجلك، اما هي فقد جذبها اليه طارئ عائلي بسيط.

كان قد هبط الي القاعدة الكبرى ، فلمح اللفافة التي كنت قد اعدت ربطها فقال لي بأسى:

- اة! اطلعت علي كل شئ، وربما وجدت بينها شيئا يفيدك.. وماذا كنت تريد ؟ انا التقت اقل الفتات.

في بعض الاحيان اقول لنفسي اني اضيع وقتي في جمع التافه من الاشياء.

ولكن لا بد من وجود رجال مثلي ليقروا علي من كان مثلك القيام بهذه الاعمال البسيطة التي يفيدون

منها فائدة عظيمة . وعندما سأقرا رسالتك سأشعر بالسرور عندما اجد تعبي قد حقق لك لو جزء من الفائدة.

واذا بالجرس يدعونا لوجبة العصر.

كنت اقول لنفسي : ما السبيل الي موفة ذلك "الطارئ العائلي البسيط"

الذي كان وحده كافيا لاقتناع هذين العجوزين ؟ هل يعرفه القس؟

فيدلا من مناصبته العداء ، وكان ينبغي ان استميله . لايهم ، فات الاوان. ولا يمنع ان السيد فلوش رجل كريم

النفس وسأظل احتفظ له بأعطر ذكرى..

وصلنا الي حجرة الطعام. قالت مدام فلوش:

- كازيمير لا يجرؤ علي طلبك للخروج معه في جولة قصيرة في الحديقة، انا اعرف انه شديد الرغبة

في ذلك، ولكن الوقت قد لايسغه.

كان الصبي يغرق وجهه في اناء من اللبن ، فوقع هامته وهو بادي الابتهاج، فقلت:

- كنت علي وشك ان اقترح عليه ان يصحبيني ، فقد انتهيت من عمالي وسأظل بلا مشاغل حتي يحين

وقت الرحيل . ولحسن الحظ كان المطر قد كف عن الهطول.

صحبت الصبي الي الحديقة.

كان الصبي يمسك باحدي يدي بين يديه. وعند اول منعطف رفع يدي الي وجهه الملتهب واخذ يضغط عليها

طويلا وقال:

- اخبرني انك ستمكث ثمانية ايام.

- يا صغيري العزيز ، لا استطيع ان ابقى اطول من ذلك.

- مللت عشتتنا .

- كلا ، وكان لا بد لي من الرحيل.

- الي اين؟

- الي باريس، وسوف اعود.

وماكدت انطق بهذه العبارة حتي نظر الي بقلق ولهفة:

- صحيح؟ هل تعد بذلك؟

كان استفسار الصبي يتضمن كثيرا من الثقة ، فلم توازنني الجاعة للتراجع ، وقلت:

- هل تحب ان اكتب لك هذا علي ورقة صغيرة تحتفظ بها؟

- اوة ! اجل!

قال وهو يقبل يدي بشدة ويقفز معبرا عن فرحته في هوس وجنون

- هل تعرف ما يحق لنا ان نفعله الان ، بدلا من الذهاب لصيد الاسماك؟ جدير بنا ان نقوم بقطف بعض

الزهور لنقدم منها لعمتك، ونذهب اليها حاملين باقة ضخمة نفاجئها بها في حجرتها.

كنت قد نويت الا اغادر الكارفورش قبل ان ازور حجرة احدي العجوزين ، ولما كننا نتجولان بلا انقطاع بين

ارجاء الدار، كان من الجائز جدا ان تفاجئني احدهما في زيارتي المتطفلة ، فكنت اعتمد علي الغلام في ايجاد

سبب لحضوري ، فاذا كان دخولي في اثر الصب الي حجرة جدته او خالته لا يبدو امرا طبيعيا، فانه يفضل

باقة الزهور قد استطيع في حالة المفاجأة ان ابرر موقعي.

غير ان قطف الزهور في الكارفورش لم يكن عمليه بسيط كما كنت اعتقد ، فقد كان جراسيان يلاحظ

الحديقة في تشدد وصرامة، ولم يكن يكتفي بارشاد الي الزهور التي يمكن قطفها، بل كان يتدخل ايضا في

تحديد الطريقة التي يتم بها قطف الزهور ، فلا بد من مراعاة الدقة والحذر، ولا بد من الحيطه كل الحيطه !

ذلك ما بينه لي كازيمير ، اقتادنا جراسيان الي حد من الزهور الداليا اللائقه، كان من الممكن ان نقطف منها

عددا من الباقات دون اثار زهرة.

- من اعلي الغصن يا سيد كازيمير ، كم مرة ينبغي ان اكرر هذا ؟ اقطف دائما من اعلي الغصن .

صحت بعد ان نفذ ثبري:

- نحن في نهاية الموسم ، فلا ضرورة لذلك الان.

فأجاب مهمهما: ضرورة ذلك قائمة في كل وقت ، وان ما من موسم يحبز العمل السيئ . انا امقت المتحذلقين

الذين لا يتحشون الا بالحكمة والمثل..

كان السكون يسود في حجرة الخالة اشبه بسكون المعبد.. وكانت مصاريع النوافذ مغلقة ، وكان يوجد

بالقرب من الفراش مصلي من خشب الموجنا المبطن بالمخمل الاحمر الفاتر، يعلوه صليب من العاج

والابنوس يغطي نصفه عصى رفيع من البقس متعلق بشريط وردي مثبت تحت احدي ابطي الصليب. كل

الشئ كان يوحي بالتعبد ، غنسييت ما جئت من اجله ، ونسييت الفضول الاجوف الذي جذبني الي هذا المكان ،

فتركت كازيمير يرتب الزهور كما يحلو له فوق منضده صغيره ، واصبحت لا انظر الي شئ في الحجرة ،

وكنت احدث نفسي قائلا " هنا فوق هذا الفراش، سرعان ما ستتطفئ شمعة مدام فلوش العجوز، بعيدا عن

اعاصير الحياة ، ايها الشراع الذي يهفو الي العاصفة اما اهدأ هذا المرفأ !

كان كازيمير في هذه الاثناء قي مل ترتيب الزهور ، فقد كانت اغصان الداليا الثقيلة قد غلبته علي امره واذا

بالباقة كلها تهدي علي الاض . واخيرا قال لي:

- هلا ساعتني؟

وبينما كنت اخذ مكانه ، اسر عالي الطرف الاخر من الحجرة نحو خزانه فتحها

وهو يقول:

- ساعد لك الورقة التي تدون فيها العودة الينا.

فعقبت قائلاً:

- هو ذاك ، هو ذاك ، اسرع ، فقد تغضب خالتك لو رأتك تنقب في خزانته .

- اوه! خالتي مشغولة في المطبخ ، ولا تزجرني مطلقاً .

وراح يكتب علي احدي اوراق الخطابات بكل دقة وعناية .

- والان تعال وقع .

فأقتربن وقلت ضاحكاً:

- ولكنك يا كازيمير ما كان ينبغي ان توقع بأسمك انت.

ما من شك في ان الصبي، رغبة منه في اصفاء الاهمية علي هذا التعهد؟

اعتقد ان من الافضل ان يوقع باسمه اسفل الورقة التي قرأت فيها

" يتعهد السيد لا كاز بالعودة الي الكارفورش في العام القادم . كازيمير دي سانت - اوريول ."

مكث برهة مرتبكا من ملاحظتي وضحكي . كان الصبي قد فعل ذلك مدفوعاً بكل قلبه ، فهل كنت اهزأ به

اذن؟! كان علي وشك البكاء.

- نهض، وعندما وقعت علي الورقة ، قفز فرحاً، وانهاه علي يدي لثماً وتقبيلاً . هممت بالانصراف ،

فجذبني من كمي وهو مائل علي الخزانة:

- سأريك شيئاً.

قال وهو يصلح زينكاف الخزانة ويسحب درجا كان يعرف طريقة فتحة .

وجعل ينقب بين شرائط وايصالات ، ثم قدم لي صورة صغيرة داخل

اطار وقال :

- انظر . اقتربت من النافذة .

- ماهذه الحكاية التي وقع فيها البطل في غرام الاميرة بمجرد ان راي صورتها ، لاشك ان هذه هي صورتها.

لا افهم في التصوير، ولا اهتم كثير بهذا الفن، الا انه من المؤكد ان خبيراً في التصوير يستطيع ان

يتبين الصنعة في هذه الصورة ، فالشخصية لاتكاد تظهر من فرط ما في الصورة من جمال وروعة - علي ان

هذا الجمال الطاهر كان من النوع الذي لايمكن للناظر ان ينساه ولا اهمية عندي ، لمحاسن التصوير او

عيوبة . فالمرأة الشابه التي كانت امامي لم اكن اري منها سوي جانب من وجهها. كانت وجنتها تختفي تقريباً

خلف خصلة ثقيلة سوداء ، وبدت عينها ناعسة حالمة في حزن ، ورايت ثغرها منفرجاً كأنما يطلق الزفرات ،

وجيدها دقيقاً اشبه بغضن الورد - كانت هذه المرأة ذات حسن فتان وجمال ملائكي ، فلم اعد وانا اتأمل اعني

شيئاً عن المكان او الزمان . وكان كازيمير قد إبتعد عني ليكمل ترتيب الزهور فعاد ومال نحوي قائلاً :

- هذه أُمي إنها جميلة ليست كذلك ؟

شعرت أمام الصبي بالحرج لأنني وجدت أمه على هذا القدر من الجمال

- أين هي الآن ؟

- لست أدري

- لماذا لاتعيش هنا ؟

- تمل الإقامة هنا

- وأبوك ؟

اضطرب بعض الشيء وقال وهو يبطأاً الرأس كأنما يشعر بالخجل :

- أبى مات

كانت اسئلتى تضايقة ولكنى كنت قد صممت على التماذى فيها •

- هل تجىء أمك لزيارتك أحيانا ؟

فأجاب مؤكدا وهو يرفع هامته فجأة :

أوه ! أجل كثيرا ماتجىء

ثم أضاف وقد خفت صوته بعض الشيء

- تجىء وتتحدث مع خالتى

- ولكنها تتحدث معك أيضا

- أوه! معى أنا •• أنا لا أعرف كيف أتحدث معها ثم أنها تجىء وأنا نائم

- نائم !

- نعم تجىء ليلا

ثم أستسلم لثقتة وإطمئنانه كان قد أمسك بيذى عندما وضعت الصورة وأضاف في حنان كأنما يعهد الى بسر

- آخر مرة جاءت وقبلتنى في فراشى

- اولا تقبلتك عادة ؟

- بلى قبلتنى كثيرا

- إذن لماذا تقول " آخر مرة "؟

- لأنها كانت تبكى

- هل جاءت مع خالتك ؟

- كلا بل دخلت مفردها في ظلمه الليل وكانت تعتقد أنى نائم

- هل أيقظتك ؟

- أوه ! لم أكن نائما بل كنت في إنتظارها

- كنت تعلم إذن بوجودها

- طأطأ رأسه مرة أخرى دون أن يجيب فسألتة بالحاح :

- كيف عرفت بوجودها ؟ وفي ظلمه الليل كيف عرفت أنها تبكى ؟

- أوه ! شعرت بذلك

- أولم تطلب منها البقاء معك ؟

- أوه ! بلى وكانت مائلة على الفراش فكنت أمسك بها من شعرها

- وماذا كانت تقول ؟

- كانت تضحك وكانت تقول أ،ى سأنكس شعرها وأنها لا بد وأن تتصرف

- الا تحبك إذن ؟

- أوه ! بلى تحبني كثيرا

صاح فجأة مبتعدا عنى وقد التهب وجهه في نبرة تنم عن الوله والحب حتى خجلت من سؤالي

واذ بصوت مدام فلوش يدوى عند سطح السلم مناديا :

- كازمير ، كازمير ! اذهب الى السيد لاکاز وأخبره بأن الوقت قد حان ليستعد للسفر فالعربه ستكون

هنا بعد نصف ساعة • أندفعت ونزلت السلم مسرعا ولحقت بالعجوز في الدهليز سألتها :

- مدام فلوش ! هل يمكن أن أكلف احدا بحمل برقية ؟ لقد وجدت طريقة تتيح لى على ما أعتقد أن أبقى

بينكم بضعة أيام آخر • فتناولت كلتا يدي بين يدها :

- أوه ! حقا ياسيدى العزيز ؟

ولما كانت في غمار تأثرها وأنفعالها لاتجد ما تقوله جعلت تكرر قولها " حقا " ! ثم أسرعت نحو نافذة فلوش

وصاحت قائلة :

- صديقى ، صديقى (هكذا كانت تنادية) السيد لاکاز تفضل بالبقاء كان صوتها الضعيف يرن كما جرس

متصدع ولكنه بلغ هدفه فقد رأيت النافذة تفتح والسيد فلوش يطل منها للحظة ثم ما أن علم بالخبر حتى قال :

- أنا نازل ! أنا نازل !

لحق كازمير وظللت بضع لحظات أتقبل التهاني من كل فرد على حده وكان المشاهد يتيقن أنى أحد افراد العائلة

كتبت برقية وهمية وأرسلتها الى عنوان وهمى

قالت مدام فلوش :

- أخشى أن أكون قد انقلبت عليك في الالاح اثناء الغذاء وأتعش مالا يعتبر بقاؤك هنا بأعمالك في باريس

- أتعشم ذلك ياسيدتى العزيزة لقد رجوت أحد الاصدقاء أن يعتنى بمصالحى

كانت مدام دى سان - أوريول قد أقبلت وكانت تهوى بمروحتها وهى تدور في الحجرة صائحة

بصوتها الحاد :

- ياله من لطيف ! أه ! لطف فائق ••• ياله من لطيف !

ثم غابت فأطبق السكون

قبل العشاء عاد القس من بون - ليفيك ولما لم يكن يدرى شيئا عن موضوع سفرى لم يفاجأ ببقائى

وقال ببشاشة :

- سيدى لاکاز أحضرت من بون - ليفينيك بعض الصحف وأنا لا أهتم كثيرا بما تراها للصحف ولكنى

تصورت أنك قد تكون محروما هنا من الاخبار وأن هذه الصحف قد تهكم

كان يبحث في رده

- أه ، حملها جراسيان مع الحقيبة الى حجرتي إنتظر لحظة فسأحضرها لك
- لانفعل ذلك ياسيدى القس سأصعد لاحضارها

صحبتة حتى حجرته فدعاني للدخول وبينما كان ينظف رداءة بفرشاة ويتهيأ للعشاء سألتة بعد تبادل
تعض المجاملة

- هل كنت تعرف اسرة سان - أوريول قبل أن تجيء الى الكارفورش ؟
- لا

- ولا السيد فلوش ؟

- أنتقلت من التبشير الى التعليم فجأة وكان رئيسى على صله بالسيد فلوش فعيننى للقيام بالمهام التى
أبأشرها الان فقبل أن أجيء الى هنا لم أكن أعرف تلميذى ولا والدية
- أى أنك لاتعرف الطارىء الذى دفع السيد فلوش فجأة الى مغادرة باريس منذ خمسة عشر عاما
تقريبا عندما كان على وشك أن يعين بالمعهد
همهم قائلاً :

- هذه تصارييف القدر

- كيف ؟ معنى هذا أن السيد فلوش وزوجته يعيشان هنا على نفقة آل سان - أوريول ؟
قال وقد ضاق صدره :

- كلا ، كلا ! إن آل سان - أوريول هم الذين فقدوا كل ثروتهم أو معظمها ومع ذلك فهم يملكون قصر
الكارفورش أما آل فلوش وهم في سعة من العيش فهم يعيشون معهم ليساعدوهم فهم يتكفون بنفقات البيت
وبذلك يتيحون لآل سان - أوريول الاحتفاظ بالكارفورش ومن المفروض ا، يؤول هذا القصر فيما بعد
لكازيمير وأعتقد أن هذا هو كل ما يأمله الصبى

- وزوجة الابن ! أم كازيمير ليست زوجة ابن سان - أوريول بل هى ابنته

- ولكن اسم الصبى ؟ (فتظاهر بعدم الفهم) الا يدعى كازيمير دى سان - أوريول ؟
فأجاب ساخراً :

- أه ! كل ما هنالك أن الانسة دى سان - أوريول تزوجت من ابن عم لها يحمل اللقب نفسة
- عظيم !

قلتها وقد ادركت هدفى الى حد ما ولو أنى ترددت في إغلاق باب المناقشة كان القس قد أنتهى من
تنظيف رداءة وكان يضع قدمه على حافى النافذة نظف حذاءه بمنديل بضربات قوية ليزيل معلق به من اتربه
سألتة قائلاً :

- وهل تعرفها ؟ . . الانسة دى سان - أوريول

رأيتها مرتين أو ثلاث مرات الا انها لا تجيء الى القصر الا مرور الكرام
- وأين تعيش ؟

- أعتدل واقفا القى بالمنديل المترب في ركن من اركان الحجرة وقال :

- هو أستجواب إذن !

ثم أضاف وهو يتوجه نحو الحوض :

- لن يلبث جرس العشاء أن يدق وأن أكون مستعداً

كان معنى هذا ان انصرف عنه وكانت شفتاه المضمومتان تحبسان الكثير من الكلام ولكنهما لن بسما
بأن يفلت منهما شيء في هذه اللحظة

.....

(٥)

مضت اربعة ايام وأنا لم أزل في الكارفورش وقد خفت حدة قلقى عما كانت عليه في اليوم الثالث الا
انى كنت اكثر مللا فلم اتوصل الى جديد لا ف الاحداث اليومية ولا في احاديث اهل الدار فاذا بى اشعر أن
فضولى الى زوال من قلبه الزاد . رأيت انه يجب أن أعرض عن فكرة اكتشاف المزيد وتأهبت للسفر من
جديد فقد كان كل ماحولى يمسك عن تعريفى بما يعرف فالاب يتظاهر باليكم منذ أن ظهر له مدى إهتمامى بما
يعلم وأما كازيمير فكما كانت تزداد يقته بى كنت ازداد امامه حرجا فلم أعد استطيع سؤاله ثم أنى أصبحت
أعلم كل مايمكن أن يخبرنى به وهو ليس اكثر مما اخبرنى به يوم أن اطلعن على الصورة .

ومع كل فإن الصبى كان قد اخبرنى باسم أمه ببراءة وطهر وربما كان من الجنون أن أبدى تأثرى
على هذا النحو بالصورة الجذابة التى كان يرجع تاريخها الى اكثر من خمسة عشر عاما بل انه حتى لو حدث
اثناء إقامتى في الكارفورش أن ظهرت إيزابيل دى سان – أوريول كما اعتادت ان تظهر لما تمكنت ولا
جرؤت على اعتراض سبيلها ومهما يكن الامر فقد كان تفكيرى الذى إنشغل بها فجأة قد كف عن الشعر بالملل
والرقابة فاذ بهذه الايام الرهيبة تنقضى بسرعة وافاجأ بانتهاء الاسبوع ليس هناك مايرر بقائى عند آل فلوش
خاصة وأن عملى لم يعد يبرر تأخير الرحيل ولكنى قى هذا الصباح كنت أتجول في الحديقة وكان الخريف قد
زاد من سعتها ورنين اصداؤها فاذا بى اجدى أهتف بصوت منخفض لا يلبث أن يرتفع : إيزابيل ! . . . واذا
بهذا الاسم الذى صدمنى في البداية يكتسى بالركة والعذوبية ويتشرب فيه سحر خفى . . . ورايتنى اردد قائلا :
إيزابيل دى سان – أوريول ، إيزابيل ! . . تخيلت ثوبها الابيض عند منعطف اللمر يمر ويختفى عن عيني .
وبين اوراق الشجر التى كانت تتغير وتتلون كان كل شعاع يذكرنى بنظراتها وابتسامتها الحزينة . ولما كنت
لا أزال اجهل الغرام وافعاله تصورت نفسى عاشقا وطاب لى أن اكون كذلك فهمت في سماوات الحب طائعا
وراضبا .

كم كانت الحديقة جميلة ! خاصة وهى تنهيا في جلال الحزن الخريف المنصرم كنت منتشيا وأنا
التشبح اريج الطحلب والاوراق الداوية وكانت اشجار الكستناء الفرعاء الصهباء تجردت من اوراقها تقريبا
تميل باغصانها على الارض حتى تمسها . كانت بعض اغصان العوسج الارجوانية تتلأأ في المطر المنهمر
والكلأ المجاور لها اخضر يانعا وكانت توجد بعض الازهار الكولشيك متناثرة فوق عشب الحديقة وتحت
ذلك في الوادى الصغير يوجد مرعى وردى اللون يلحمة المشاهد من المحجر كنت اجلس فيه عندما يكف
المطر عن الانهمار فوق الحجر نفسه الذى كنت جلست عليه مع كازيمير في اليوم الاول ومن يدري لعل
الانسة دى سان – أوريول تكون قد جلست عليه من قبل فتخيلت انى اجلس الى جوارها .

كان كازيمير يرافقتى كثيرا ولكنى افضل أن اسير وحدى كان المطر يباغتني كل يوم وانا في
الحديقة فكنت أعود مبلالا الى المطبخ لاجفف ملابسى بالقرب من الموقد . لم تكن الطاهية تحبنى وجراسيان
كذلك ولم اتمكن بتلطفى ورقتى معهما أن انتزع منهما ثلاث كلمات . حتى الكلب لم أتمكن من ان اجعل منه

صديقا رغم مداعبتى له وتملقى اياه • كان " ترنو " يقضى معظم النهار راقدًا في الموقد الواسع وكنت لا اكاد اقترب منه حتى يهب مزمجرا • أما كازيمير الذى كنت اراه في الغالب جالسا على حافة المدفأة يقشر الخضروات او منهمكا في القراءة كان يضرب الكلب ضربا خفيفا زاجرا اياه لانه يسيء استقبالي • كنت اتناول الكتاب من بين يدي الصبى واواصل القراءة بصوت مرتفع فيستند على ركبتي واشعر به وقد إنصرف الى بسمعة وقلبه •

لكن المطر المنهمر في ذلك الصباح هطل شديدا عنيفا بحيث لم اتمكن من التفكير في العودة الى القصر فأسرعت فلجأت بسرعة الى اقرب ملاذ وهو المبنى المهجور في نهاية الحديقة قرب الباب الحديدى وكان منهما فيما عدا قاعة شاسعة لاتزال انيقة كأنها قاعة استقبال او مكان للنزهة الا أن اخشاب جدرانها المنحدرة كانت تتشقق وتتصدع لاقل صدمه •

عندما دخلت دافعا بابها الذى لم يحكم اغلاقه جاءت بعض الخفافيش خارجة مندفعة من النافذة التى خلت من زجاجها كنت اعتقد أن المطر لن يطول ولكنى وجدت وانا اخذ نفسى أن السماء قد اكفهرت واربدت تماما • واذا بى مطوق في حصار طويل الاجل • كانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف وكان اهل الدار لايتناولون الغذاء الا في الثانية عشرة • وجدت انى سأنتظر حتى يدق الجرس الاول الذى مامن شك في ان صوته يصل الى هذا المكان • كان معى مايلزم للكتابة ولما كان يريد متأخرا حاولت أن أثبت لنفسي أن شغل الفكر ساعة زمن لا يقل يسرا عن شغله يوما كاملا • الا أن خيالى كان يردنى الى ••••• أه ! لو كنت أعلم انها ستظهر ذات يوم في هذا المكان لحرقت هذه الجدران يزفرات قلبى الولهان • وسرعان ما تملكنى ضيق ممن تنقله العبرات ومكثت منها را في ركن من الحجرة فلم يكن بها مقعدا للجلوس واذا بى أنفجر في البكاء كطفل ضل الطريق •

ان لفظ الضيق كاضعف بالتاكيد من ان يعبر عنا الاشجان المضنية التى كنت اقع فريسة لها دائما هذه الاشجان تستولى علينا فجأة ونحن في قمه سعادتنا فقبل لحظة يضحك لك كل شىء وتضحك أنت لكل شىء وفجأة اذا بغمامة سوداء داكنة تتصاعد مناعماق النفس وتقف حائلا بين المتعة والحياة واذا بها تكون ستارا أغبر يفصلنا عن بقية العالم ••• واذا بحرارة هذا العالم وحبه والمه وانسجامه لاتلنا الا في صورة انعكاس مجرد فنرى ولانتأثر وربما اودى بنا ما نبذله من جهد يائس لاختراق هذا الستار الفاصل الى ارتكاب اية جريمة وقد يصل الامر بنا الى القتل او الانتحار وربما الى الجنون

هذا ماكان يدور بخلدى وأنا ارهف السمع للمطر المهمر كنت احتفظ في يدى بمديه ففتحتها لايرى القلم ولكن الورقة التى فتحت عليها مفكرتى ظلت بيضاء واذا بى احضر بسن المدية على سطح الجدار المجاور محاولا نقش اسمها لم أفعل ذلك عن اقتناع ولكن لانى كنت اعلم انالعشاق المولعين يفعلون ذلك وعلى اثر كل محاولة كان الخشب البالى يتهاوى ويسقط وكان كل حرف انقشة يترك وراءه ثقبا • وبر قصد ولمجرد شغل الوقت شرعت في تجريح الخشب كيفما اتفق مدفوعا بغريزة الهدم البلهاء • كان الغطاء الخشبى الذى كنت احطمة يقع تحت النافذة مباشرة وكان اطارة منفصلا في اعلاه بحيث كان من السهل ان يسحب الغطاء كله من اسفل الى اعلى بين جوانبة • وهذا ما لاحظته عندما فوجئت بمديتى ترفع هذا الغطاء الخشبى في غمار النقش والتجريح •

لم تمض لحظات حتى كنت قد اجهزت على تفتيت الغطاء الخشبي واذ بمظروف يسقط على الارض مع فتات الخشب وكان متسخا عطنا اكتسب لون الجدار بحيث لم ادهش بدايه كلا لم أتعجب من رؤيته فم اجد غرابة في وجوده هنا • ولذلك لم أتأثر • ولم احاول فضه فورا كان دميما مغبرا قدرا يظنه المشاهد جزءا من انقاض • فاذا كنت قد تناولته فانما كان ذلك لشغل الفراغ • واذا كنت فضضته فانما كان ذلك بطريقة آلية أخرجت منه ورقتين مكتوبتين بخط كبير باهت اللون وغير مرتب يكاد يكون ممسوحا في بعض الاجزاء • ماذا يفعل هنا هذا الخطاب ! نظرت الى التوقيع فذهلت كان اسم ايزابيل مكتوبا في نهاية الورقتين • كانت تشغل بالي حتى اللحظة • • فتوهمت لبرهة انها تكتب الرسالة لى أنا : " حبيبى هذاآخر رسالة منى لك • • أنا اكتب هذه الكلمات على عجل لأنى أعرف أنى لن أتمكن هذا المساء من قول شيء لك فشفتاى وهما الى جوارك لن تعرفا غير القبلات فاسمعنى بسرعة وانا لا أزال قادرة على الكلام أنصت الى • • لقائنا في الحادية عشرة متقدم جدا فالأفضل أن يكون في الثانية عشرة • أنت تعلم انى أدوب لهفة الى لقائك وأن الانتظار يضننى ولكنى لكى اسعى للقائك لابد أنينام كل من في الدار أجل الثانية عشرة وليس قبل ذلك • تعال للقائى عند باب المطبخ سر بمحاذاة جدران بستان الخضروات الذى يقع في منطقة مظلمة فذاك أيضا اشجار العوسج • إنتظرنى هناك وليس امام الباب الحديدى لا أقول هذا لانى اخشى أن اجتاز الحديقة وحدى ولكن لأن الحقيبة التى اضع فيها بعض ملابسى ستكون ثقيلة للغاية بحيث لن اقوى على حملها لمدة طويلة • • أرى انه من الافضل ان تظل العربية في طرف الشارع الضيق حتى نتمكن من رؤيتها بسهولة وكذلك بسبب كلاب المزرعة التى من الجائز أن تنبح وتوقظ النيام فهذا أقرب للحرص كلا يا صديقى فكما تعلم لم تكن لدينا وسيلة الى اللقاء مرة اخرى والاتفاق على هذا كله شفاهة تعلم انى اعيش هنا اسيرة وان العجوزين اصبحا لايسمحان لى بالخروج ولا بالدخول • أه أى زنزانة تلك التى اهرب منها • • سأهتّم بأن اخذ معى زوجا من الاحذية لغير انتعلة بمجرد أن تركب العربية لان العشب في طرف الحديقة مبلل بالماء • كيف تسألنى بعد ذلك عما اذا كنت ناوية ومستعدة فلتعلم يا حبيبى انى منذ شهور أتهياً ومنذ شهور وانا مستعدة • وهاهى ذى اعوام مضت وأنا أنتظر هذه اللحظة ! وتسألنى الن أندم على ذلك • • أنت لم تفهم اذن انى اصبحت امقت كل من تربطهم علاقة بى وكل مايقينى الى هذاالدار • اهذهحقا ايزا الرقيقة المتهيبة التى تتحدث اليك ! صديقى وحبيبى ماذا فعلت بى ياغرامى ؟ ! أنا هنا اختنق وافكر في العوالم الاخرى التى تفتح لى ابوابها أنا ظمأى • • اوشكت ان انسى اخبارك بانى لم أفلح في انتزاع فصوص الياقوت من علبتها لانخالتي لم تعد تترك مفاتيحها في حجرتها ولدى سوار امى والسلسلة المطعمة وخاتمان وقد يكونان بلا قيمة كبيرة ولكنى اعتقد ان السلسلة في غاية الجمال • أما عنالمال فسأبذل جهدى ولكنك ايضا تحسن صنعا لو حصلت على مبلغ منه • لك خالص دعواتى • (الثانى والعشرون من اكتوبر الموافق عيد ميلادى الثانى والعشرين وليلى خلاصى) صديقتك ايزا •

وافكر في رهية ماذا لو كان على ان انسج رواية من هذاالقصة الواقعية وفي الجهد الذى كان بتحتم على ان ابذلة في صياغة هذه الصفحات التى يسبلزمها الاطناب • وفكرت بعد قراءتها وتساءلت في امرها فانتهى بى التفكير الى الحيرة والبلبل • والحقيقة انى غرقت في وجوم اشبة بالوجوم الذى يستتبع صدمة عنيفة وعندما بلغ سمعى عبر اضطراب دمائى صوت الجرس يدق ويكرر الدق تبينت انه صوت الجرس الثانى الذى يدعو للغذاء • فكيف لم اسمع الدقة الاولى ؟ أخرجت ساعتى فوجدتها تشير الى الثانية عشرة فقفزت الى الخارج في الحال اضم الى قلبى تلك الرسالة وأندفعت عارى الرأس تحت وابل المطر المهر •

وجدت آل فلوش قلقين لغيابي • ولما وصلت لاهثا قيل لى : إنك ايها السيد العزيز مبلل الثياب تماما • •
ورفضوا الجلوس الى المائدة قبل ان اغير ثيابي • فما أن عدت حتى اخذ الرجل والمرأة يسألانى في تودد
فوجدتنى مضطر للقول بأن المطر احتجزنى داخل المنزل وانى ظلت أنتظر عبثا مهله ينتهى بعدها المطر
المنهمر • فاعتذروا عن رداءة الجو وبشاعة الممرات واعتذر ا عن ق الجرس الثانى قبل مواعده بكثير
وأناالجرس الاول دق اضعف من المعتاد • • انطلقت الانسة فيردوز لتحضر شالا رجاني آل فلوش أن أعطى
به كتفى لانى كنت لأزال اتصيب عرقا ومن الجائز أن اصاب بسوء كان القس في تلك الاثناء يراقبنى دون
أن ينطق بكلمة وقد ضم شفوية بشدة حتى بدا عابسا الوجه وكنت بالغ الحساسية بحيث شعرت تحت وطأة
نظراته بالخجل والارتباك كطفل ارتكب ذنبا • ورأيت أن منالواجب التودد اليه لانى لن اعرف شيئا بعد ذلك
الا عن طريقه فهو وحدة الذى يستطيع أن يجلو لى ماغض من هذا الموضوع الشائك الذى اصبحت انجذب
اليى بدافع الحب اكثر من دافعالفضول •

بعد تناول القهوة كانت السجارة التى قدمتها للقس ذريعة للمحادثة فتوجهنا للتدخين في تعريشة
البرتقال حتى لانضايق البارونه بادرني في لهجة ساخرة قائلا :

- كنت أعتقد انك لن تمكث هنا اكثر من ثمانية ايام
- هذا ماكنت انوى عمله لولا تلطف اهل الدار
- ووثائق السيد فلوش ؟
- إستوعبتها • • ولكنى وجدت سببا ادعى للانشغال

انتظرت منه استفسارا ولكنه لم يقل شيئا فاستطردت قائلا وقد نفذ صبرى :

- لابد أنك تعرف اسرار هذا القصر وخفاياه

جحظت عيناة وقطب جبينه وتظاهر بالبراءة والبلاهة فقلت :

- لماذا لاقيم مدام دى سان – أوريول والدة تلميذك هنا فتوزع اهتمامها بين انها العاجز ووالديها المسنين ؟

ولكى يجيد تمثيل دور المدهش القى بسيجارته وفتح يديه ووضعهما حول وجهه وهمهم قائلا :

- ربما كانت مشاغلها تستدعى وجودها في مكان اخر • يالهمن سؤال مغرض
- هل تريد سؤالا اكثر تحديدا • • ماذا فعلت السيدة او الانسة دسان –أوريول والدة تلميذك ليلة ٢٢ أكتوبر
- حيث كان من المفروض أن يأتى حبيبها لاختطافها ؟

حط قبضتية على خاصرتيه وقال :

- عجا ! • • • عجا ! • • • ياسيدى الروائى

كنت منساقا الى الافضاء له بأسرارى وهو افضاء لاينبغى ان يكون الا لشخص يبادلنى ودا بود
لانهالقس مأن أدرك مقصدى حتى شرع يسخر منى بطريقة لاطاقة لى بها فأضاف قائلا :

- الا ترى انك تتسرع ؟ هل لى أناسألك بدورى كيف توصلت الى هه المعلومات ؟

- الرسالة التي كتبها ايزابيل دسان - اوريول الى حبيبها فى ذلك اليوم لم يتلمها بل تسلمتها انا

كان عليّ ان يدرك مدى خطورتى فى تلك اللحظة لمح بقعة صغيرة على كم رداءة فشرع يحكها بطرف ظفيرة وبدأ يغير من موقفة وقال :

- أنا معجب بهذا السلوك .. فما أن يعتقد احدكم انه ولد روائيا حتى يستبيح لنفسه جميع الحقوق .. لو كان غيرك مكانك لفكر مرتين قبل أن يطلع على رسالة ليست موجهه اليه
- بل أرجو الا يكون قد اطلع عليها اصلا

كنت اتفرس وجهه الا انه كان لايزال يحك رداءة وقد اخفض عينيه :

- على كل حال لا اعتقد ان احدا طلب منك ان تقرأها

- هذه الرسالة وقعت بين يدي صدفه كان المظروف رثا ومتسخا وشبه ممزق ولا يحمل اى اثر لكتابة ..
وعندما فتحته وجدت رسالة موجهه من انسة دى سان - اوريول ولكن الى مكانت موجهه ؟ هيا ايها القس
عاوننى من كان منذ اربعة عشر عاما عشيقا للانسة دى سان - اوريول ؟

كان القس قد وقف معتدلا فاخذ يسير طولا وعرضا في خطى قصيرة مطأطأ الرأس شابكا يديه خلف ظهرة .. وما ان اصبح خلف مقعدى للمرة الثانية حتى توقف وشعرت فجأة بيدي تستقران فوق كتفى

- ارنى هذه الرسالة

- هل ستنكلم ؟

شعرت بقبضته ترتجفان من الالهفة :

- آه ! لا تشترط ارجوك ارنى هذه الرسالة فحسب

- دعنى أذهب لاحضارها

قلتها محاولا الافلات منه

- إنها معك هنا .. فى حقيبتك

كانت عيناه مركزتان على مكان الرسالة كما لو كانتى تشف عنها لعله يقوم بتفتيشى ..

كان وضعى لايسمح بالدفاع عن نفسى خاصة ضد عملاق اقوى منى ثم ما السبيل بعد ذلك الى حمله على الكلام ! .. التفت فإذا بوجهه يكاد ينطبق على وجهى .. كان وجهها منتفخا متورما خط جبينه عرقان ضخمان واسفل عينيه جيو ب بغیضة تكلفت الضحك خشية ان يفسد كل شىء بيننا وقلت له :

- عفوا ايها القس .. اعترف انك مثلى تعاني من الفضول

اخلى سبيلى فنهضت في التو وتظاهرت بالخروج

- لو لم تتبع معى اساليب قطاع الطرق لاريتك الرسالة

ثم قلت وانا امسكة من ذراعة :
- فلنقترب من قاعة الاستقبال لأتمكن من طلب النجدة

كنت أبذل مجهودا خارقا لاحافظ على روح الدعابة في لهجتي الا انق لبي كان يدق بشدة

- خذ إقرأها امامى اريد ان ارى كيف يقرأ القس رسالة غرامية • قلت ذلك وانا اخرج الرالة من جيبى

لكنه تملك نفسه من جديد ولم يظهر اى انفعال الا من خلال رعشة خفيفة في عضلة صغيرة على خدة
كان من المستحيل إخفائها • قرأ الرسالة ثم تسمم الورقة وهو يقطب حاجبيه في شدة وبطريقة يبدو منها ان
عينيه تسخطان على انفه ثم أعاد طى الرسالة وردھا الى وقال بلهجة شبه رسمية :

- في ذلك اليوم الثانى والعشرين من اكتوبر قتل الفيكونت يليز جونفريفيل في حادث اثناء قيامه بالصيد
- انتفض فزعا لما تقول (فسرعان ما نسج خيالى قصة مأساة مروعة) ويجب ان تعرف اننى عثرت على
هذه الرسالة خلف اخشاب الدار • • ومامن شك في انه كان من المفروض ان يحضر الى ذلك المكان ليتسلمها
عندئذ اخبرنى القس ان اكبر انباء جونفريفيل وكانت ضيعتهم تجاور ضيعة آل سان – اوريول قد وجد
قتيلا بجوار حاجز من الحواجز كان فيما يبدو يريد ان يجتازة عندما اتى بحركة خرقاء فانطلق عيار من
بندقية ومع ذلك لم يعثر في ماسورة بندقيته على خرطوش العيار ولم يتقدم احد بأيه معلومات عنالحادث
فالشاب كان قد خرج بمفرده ولم يره احد الا انه في اليومالتالى عثر المارة على كلب من كلاب الكارفورش
يلعق في بركة من الدماء بالقرب من الدار
اردف القس قائلا :

- لم اكن بعد قد حضرت الى قصر الكارفورش ولكنه يبدو لى طبقا للمعلومات التى تمكنت من جمعها
انج راسيان هو الذى ارتكب الجريمة فليس من المستبعد ان يكون قد اكتشف ما كان بين سيدة والفيكونت من
علاقات وربما علم كذلك بموضوع هروبها (وهو موضوع كنت اجهله انا نفسى قبل ان اقرأ هذه الرسالة)
فهو خادم عنيد شرس لايتورع عن اتيان أى فعل في سبيل الذود عن حمى سادته
- ولماذا لم يقبض عليه ؟

- لم يكن لای احد مصلحة في اتهمه وكان ال جونفريفيل وال سان – اوريول يخشيان ما قد يثار من
شائعات حول هذا الحاث المفجع فضلا انه بعد بضعة شهور وضعت الانسة دى سان – اوريول طفلا بائسا
ويرجع الناس عاهة كازيمير الى ما إتخته امه من تدابير بهدف اخفاء حملها لكن الله يعلمنا ان عقاب الاباء
غالبا مايقع على الابناء • تعالى معى الى الدار فأنا مطوق لرؤية المكان الذى عثرت فيه على الرسالة •

كانت السماء قد عادت الى صفائها فاتخذنا طريقنا الى الدار معا وذهبنا على خير فقد امسك القس
بذراعى ومضيئا في خطى متساوية نتحاور بلا صدام لكن الامر فسد عند العودة فلا شك ان غرابة الحاث
اثرث في نفس كل منا بطريقة مختلفة اما انا فأمام ما اظهره القس من حس التلطف في اطلاعى على
المعلومات وان نسيت مايملية رداءة من احترام هيبية كما نسيت تحفظى وجدتنى اتحدث اله كما لو كان رجلا
عاديا • • ولكن كيف دب الخلاف بيننا ؟! • • كنت اقول له :

- من ذلك الذى يحكى لنا ما فعلته الانسة دى سان – اوريول في تلك الليلة ! فما شك انها لم تعلم بخبر
موت الكونت الا في الصباح ! فهل إنتظرتة في الحديقة ؟ وحتى متى ؟ وماذا إعتقدت عندما لم يأت ؟

كان القس يلزم الصمت تماما دون ان يتأثر لشاعريتي فعدت اقول :

- تصور هذه الفتاة الرقيقة وقلوبها مثقل بالغرام واسى ورأسها مغمم بالهوس ايزابيل المتيمة !

همس القس :

- قل ايزابيل الفاجرة !

واصلت حديثي كأنما لم اسمع همسه ولكنى كنت قد صممت على الدفاع عنها لو عاد الى مهاجمتها :

- فكر في كل ما كانت تعلقه من امل وما إنتابها من يأس ..

قاطعنى في جفاء

- لماذا تفكر في هذا كله ! ليس علينا ان نعرف عن الاحداث سوى مايفيدنا

- ولكن الفائدة تختلف باختلاف المعلومات التى نعرفها

- ماذا تقصد بذلك ؟

- معرفتنا السطحية بالاحداث لا تتفق ومعرفتنا العميقة التى نستطيع فيما بعد ان نتوصل اليها وان المعلومات التى نستخلصها من هذين النوعين من المعرفة لا تكون واحدة وان من الخير ان نتمعن الامور ونتقصاها قبل ان نخلص الى النتائج

- صديقى الشاب أعلم انالميل الى التمعن والتقصى وحب الانتقاد هى جرثومة التمرد ان الرجل العظيم الذى إتخذته مثال كان احرى ب هان يعلمك ان ...

- تقصد ذلك الذى اكتب عنهرسالتى ؟

- يالك من مناكف لحوح ابمثل هذه الروح ...

- بالله عليك الا اخبرتنى ياسيدى القس اليس هذاالفضول نفسه هو الذى جعلك تصحبنى في هذا الوقت ودفعك منذ برهه الى مكان الرسالة وحدا بك الى معرفةكل هذا الذى اخبرتنى ، كان قد اسرع خطاه وغدت لهجته قاطعة وجعل يضرب الارض بعصاه زهقا وتبرما :

- أنا لا ابحت مثلك عن تفسيرات للتفسيرات فما أن أعلم بالحادث حتى اقتصر على معرفته . الوقائع الخطيرة التى أخبرتك بها تعلمنى اذا كانت لا تزال هناك حاجة الى تعليم بشاعة الرذيلة التى يردينا فيها الجسد وفيها إدانه للطلاق ولكل ماتفتق عنه عقل الانسان ليبتجنب نتائج ماجنته يداه من أخطاء . أظن ان في هذا الكفاية اليس كذلك ؟

-ليس في هذا الكفاية ! الواقعة لاتعنينى في شىء طالما لم اصل الى اسبابها فمعرفة الجانب الخفى في حياة ايزابيل دى سان -اوربول والاطلاع على السالك العطرة الشجية المعقدة ...

- حذارى ايها الشاب بدأت تهيم بها !

- آه .. هذا ماكنت أتوقعه ! المظهر لايكفينى الان وقد اكتفى بالاقوال والاشارات .. أوافق أنتمن أنك لاتسئء الحكم على هذه المرأة ؟

- إنها فاجرة !

الهب الغيظ رأسى ولم اتمكن من كتمانها الا بمشقة بالغة :

- سيدى القس مثب هذه الالفاظ تدهشنى عندما تخرج من فمك ويبدو لى ان المسيح يعلمنا أن الصفح أجمل من التنكيل
- فارق بسيط بين التسامح والمجاملة
- لو قدر له ان يكون مكانك لما قضى عليها بمثل ما فعلت
- اولا هذه الامور لاتدرى عنها شيئا ثم ان المعصوم من الخطايا يستطيع أن يكون اكثر تسامحا حيال الآخرين من ذلك الذى . . . أعنى أننا نحن العصاه ليس لنا ان نتنحل الاعذار للمعاصى كل ما علينا أن نبتعد عنها بوجوهنا في استنكار
- بعد أن نتشممها كما تسممت أنت عطر هذه الرسالة !
- أنت وقح !

إبتعد عن الطريق فجأة وانطلق مسرع الخطى متخذاً طريقاً ضيقاً قريباً وهو يرمينى على طريقة " البارتيين " بعبارة جارحة لم أميز منها سوى هذه الالفاظ : تعليم حديث سوربونى زنديق .

عندما التقينا على العشاء كان لايزال عابسا ولكنه ما أن تركنا المائدة حتى اقبل نحوى مبتسما وقدم لى يدا شددت عليها وأنا ابتسم انا الآخر .

بدت لى السهرة اكثر مللا من المعتاد . كان البارون يئن في هدوء الى جانب النار . وكان السيد فلوش والقس ينقلان نردهما دون كلام . وبطرف عينى رأيت كازيمير وقد دس رأسه بين يديه يسيل لعابه ببطء فوق الكتاب فيمسحه مرارا بحركة من منديلة . أما أنا فلم اهتم بلعبته البيزيج دون أن اسبب خسارة مروعة مخزية لمزميلتى . وكانت مدام فلوش تلاحظ وتجزع لضجى فكانت تبذل جهدا كبيرا لتثير حماسة في اللعب

- هيا يا أوليمب ! هذا دورك هل تنامين ؟

لم يكن النعاس ولكنه الموت الذى اصبحت اشعر بخدرة الغامض يجمد اهل الدار وانا نفسى كنت اشعر بالقلق بل بالضيق يطبق على صدرى . أخذت اخاطب نفسى وانا افكر في ايزابيل قائلا " أيها الربيع ايتها الرياح الهائلة ايتها العطور الجاذية ايتها الموسيقى العذبة لن تصلى الى هذا المكان مطلقا . ما أبشع القبر الذى افلت منه والى اى حياة ياترى ! إنطلقت إننى اتخيلك هناك في ضوء المصباح الهادىء وقد وضعت جبينك الشاحب على أناملك الرقيقة وخصلة من شعرك الفاحم تلامس معصمك وتداعبه . ما بال عينيك تتطلعان بعيدا وما هذا الضجر الذى يعانیه جسك وروحك تعبر عنه هذه الزفرة التى لا يسمعونها ؟ ومنى أنا ايضا ودون أن ادري افلنت زفرة هائلة اقرب الى التثاؤب او البكاء حتى أن مدام دى سان - اوريول صاحت وهى تلقى بآخر ورقة على المنضدة :

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب رغبة شديدة في النوم .

يالها من امرأة مسكينة !

في تلك الليلة رأيت حلما في المنام لم يكن في البداية سوى تكملة للواقع فقد رأيت أننى لا أزال في حجرة الاستقبال قبل أن تنتهى السهرة تماما الى جوار اهل الدار ولكن جماعة اخذ عددها يزداد كانت تنضم اليهم مع انى لم ار احدا يدخل علينا تعرفت على كازيمير وهو يجلس الى المنضدة اما م احدى الالعب وكان

ثمة ثلاثة او اربعة رجال منكبين على اللعبة كان الموجودين يتحدثون بصوت منخفض بحيث لم اتمكن من تمييز عبارة واحدة مما يقولون ولكنى فهمت ان كل شخص يخبر جاره بأمر ما يثير دهشته كان الاهتمام موجها الى مكان بالقرب من كازيمير حيث تعرفت فجأة على ايزابيل دى سان – اوريول وهى جالسة الى المائدة (كيف لم اراها من قبل) كانت وحدها ترتدى ثيابا بيضاء وسط الحفل الفاتمة • لاحت لى في البداية جميلة ساحرة شبيهة بالصورة ولكنى سرعان ما أخذت بجمود ملامحها وثبوت نظراتها وادركت فجأة ما كان يهمس بهالقدم

لم تكن من امامى هى ايزابيل الحقيقية ولكن دمية تشبهها وضعت مكانها اثناء غياب الاصل • وعندئذ بدت هذه الدمية فبيحة دمية • ضاق صدرى امام مظهر غباؤها المتحذلق كان المشاهد يعتقد أنها ساكنة تماما ولكنى وانا احق النظر فيها رأيته تميل ببطء الى جانب تميل وتميل حتى كادت تسقط • فانطلقت الانسة أوليمب من الطرف الاخر لجرة الاستقبال مالت حتى بلغت الارض ورفعت غطاء الكرسي الوثير وملأت زنبكا أخذ يصدر صريرا عجبيا • فإذا بالمسخة تعتدل وتحرك ذراعيها حركة آلية غريبة تنثر الضحك – نهض الجميع عندما حان وقت الانصراف تاركين خلفهم ايزابيل المزيفة وحدها كان كل فرد من المنصرفين يحييها بانحناءة على الطريقة التركية فيما عدا البارون الذى إقترب منها دون مبالاة وأمسك شعرها المستعار وطبع على جبينها قبلتين رنانتين وهو نضحك مقهقها • وما ان خلت حجرة الاستقبال منازلوار وقد رأيت عددا خفيرا ينصرف – حتى اطبق الظلام ورأيت رغم المظلام حقا تلك الدمية وقد شحب لونها وإنتفض جسدها وسرت فيها الحياة كانت تنهض ببطء فاذا بها الانسة دى سان – أوريول بشحمها ولحمها • توجهت نحوى بلا ضوضاء وسرعان ما شعرت بذراعيها الفاترتين تطوقان عنقى وإستيقظت على لفح انفاسها وهى تقول لى :

- أنا بالنسبة لهم غائبة أما بالنسبة لك فانى حاضرة

لست متطيرا ولا هيابا • واذا كنت قد اشعلتشمعتى فذلك لكى اصرف عن عينى وعن رأسى هذه الصورة الماثلة ابدًا ولقد تجشمت مشقة كبيرة في سبيل ذلك • وعلى الرغم منى كنت انتصت على كل صوت عساها تكون موجودة • • • وعبثا شغلت نفسى بالقراءة فلم أتمكن من صرف إنتباهى عنها الى أى شىء آخر • وهكذا وأنا غارق في التفكير فيها عاودنى النوم حتى الصباح •

.....

هكذا فترت الحماسة التي لازمت فضولى العاشق ولم استطع تأجيل رحيلى اكثر من ذلك بعد أن أخبرت به اهل الدار مرة اخرى كان ذلك اليوم هو آخر أيامى في الكارفورش •

الان نحن على الغذاء في انتظار البريد الذى أعتادت ديفلين ان تحمله الينا قبل الحلوى • وكما سبق وقلت انها تسلمه لمدام فلوش فتتولى بدورها توزيع الرسائل وتقديم جريدة " الحوار " للسيد فلوش الذى يتوارى خلف صفحاتها حتى يغادر المائدة • في ذلك اليوم تعلق مظروف بنفسجى اللون بالجريدة انفصل عنالحزمة وطار حتى وقع فوق المائدة بجوار صحن مدام فلوش • تمكنت من التعرف على الخط الكبير غير المنظم الذى دق له قلبى مساء امس وكذلك مدامفلوش فيما يبدو فأنت حركة سريعة اتغطى المظروف بصحنها • الا أن الصحن إصطدم بكوب فكسرة وسال النبيذ فوق المفرش أحدث ذلك ضوضاء عالية فانتهزت مدام فلوش الاضطراب وادخلت المظروف في قفازها •

قالت في سداجه طفل يبحث عن عذر :

- أردت أن اسحق عنكبا

كانت لاتفرق بين العناكب وغيرها من الحشرات التى تخرج في بعضالاحيان من سله الفواكه • نهضت مدام دى سان – اوريول ملقية مشفتها فوق المائدة وقالت بلهجة حادة :

- أراهن انك اخطأت هدفك الحقى بى في حجرة الاستقبال معذرة ايها السادة فقد عاودنى المغص •

انتهى العشاء في صمت – لم ير السيد فلوش شيئا ولم يدرك السيد دى سان – اوريول شيئا • كذلك كان القس والانسة فيردور يركزان البصر كل في صحنه • ولو لم يتمخط كازيمير لرأيته يبكى •

كان الجو فاترا أحضرت الانسة فيردور القهوة الى الشرفة الصغيرة التى تؤدى بسطتها الى حجرة الاستقبال كنت اتناول القهوة مع الانسة فيردور والقس – بلغت آذاننا ضوضاء واصوات تجيء من حجرة الاستقبال التى كانت السيدتان بداخلها – ثم لم نعد نسمع شيئا فقد صعدت السدتان ولو صدقت ذاكرتى دارت مشاحنة شجرة الزان ذات اوراق البقدونس •

كانت الانسة فيردور والقس في حالة حرب دائمة • ولم تكن المعارك بينهما خطيرة تماما فقد كان القس يستهدف الضحك والمزاح الا ا، أكثر ما كان يثير سخك الأنسة فيردور هى لهجة القس الساخرة التى كان يتحدث بها • كانت تعرض نفسها لضرباتة فيكيل لها في الصميم وكان لايكاد بمضى يوم واحد دون ان ينشب بينهما صدام كان القس يسيه مشاحنه ويزعم ان صة الأنسة في حاجة الى مثل هذهاالمشاحنات فيفعل بها مايشاء وتطيعه منفذة مايريد كما الكلب المطيع لم يكن شرسا أو ميالا للأيذاء مع ان تصرفاته معها لم تكن تخلو من المكر والخبث وإثارة الأعصاب • كان هذا يشغل أوقاتها ويملاً الحياة من حولها بهجة ومرحا •

كانت الحادثة التي وقعت أثناء تناول الحلوى قد أثارت اعصابها حاولت أن أبعد الأذهان عنها عندما كان الاب يصب القهوة فعثرت يدي على حزمة من اوراق الشجر داخل سترتي كنت قطفتها من شجرة غريبة بجوار الباب الحديدى للمدخل لكى أسأل الأنسة فيردور عن اسمها • لم يكن ذلك لأنى شغوف بمعرفتها لكن لأن الأنسة فيردور كانت تسر عندما يلجأ اليها أحد ليستفسر منها عن أى شىء •

كانت تهتم بعلم النبات • وكانت في بعض الايام تخرج لجمع الاعشاب وقد علقت فوق كتفيها القويتين علة خضراء تبدو غريبة الشكل • وتقضى بين أعشابها ومجهرها ما تسمح به أعمال المنزل من فراغ • وعلى ذلك تناولت الانسة فيردور الفص وقالت بلا تردد :

- ياله من اسم غريب ومع ذلك فهذه الأوراق المدببة لا علاقة لها إطلاقاً بأوراق ...

كان القس يضحك في خبث منذ برهة قال دون ان يعبير الأمر إهتماماً :

- هكذا يسمون في الكارفورش شجرة " الفاجوس بيرسييفوليا "

إنتفضت الانسة فيردور وعلقت بقولها :

- لم أكن اعتقد أنك تفهم في علم النباتات الى هذا الحد !

- كلا ولكنى ملم الى حد ما باللغة اللاتينية

مال على واضاف قوله:

- هؤلاء السيدات يقعن ضحية خطأ لادخل لهن به • أنكلمة بيرسييكوس يا أنستى العزيزة تعنى الخوخ وليس البقدونس وعلى ذلك فان " الفاجوس سيبيفوليا " التى لاحظ السيد لاكاز اوراقها المدببة هى " شجرة الزان " ذات اوراق الخوخ •

كان وجه الانسة فيردور قد إمتنع لونه • وكان الهدوء الذى اظهره القس قد اهاج أعصابها الا انها استطاعت أن تقول دون أن تنتظر اليه :

- علم النبات الصحيح لايهتم بالشواذ ولا بالمسوخ

ثم أفرغت فنجانها مرة واحدة ومضت مثل الريح

كان القس قد ضم شفثية فأصلح فمه مثل مؤخرة الدجاجة وجعلت تخرج منه اصوات أشبه بالظراط • وبذلت مجهوداً كبيراً حتى لا أضحك

- هل انت شرس الى هذا الحد ياسيدى القس ؟

- كلا كلا هذه الانسة لتؤدى التمرينات بما فيه الكفاية وهى في حاجة الى ان تلهب دماغها • وهى تميل الى العراك هل تتصور انى لو ظللت ثلاثة أيام دون ان اناوشها تجيء بنفسها وتبدأ العراك ثم أن وسائل اللهو في الكارفورش ليست كثيرة •

عندئذ شرع كلانا بدون كلام في التفكير في رسالة الغذاء ثم بادرت بسؤاله :

- هل عرفت الخط ؟

هز كتفيه قائلا :

- قبل الآن او بعد قليل تصل مثل هذه الرسالة الى الكارفورش مرتين كل عام بعد سداد إيجارات المزرعة وفيها تعلن عن حضورها .

صحت قائلا :

- هل ستحضر ؟

- لا عليك ! لا عليك فلن تراها !

- ولماذا لأراها ؟

- لانها تحضر في منتصف الليل وترحل فورا ثم انها تتجنب العيون . . . وحذارى من جراسان

كان ينظر في وجهي بإمعان فلم أحرك ساكنا فاستطرد بلهجة محتدة :

- لن تعمل حسابا لما قلته لك هذا واضح ولكنى أنذرك فافعل ما يبدو لك وأخبرني غدا

نهض وتركنى دون أن اتمكن من معرفة هل كان يحاول ا، يحد من فضولى أم كان يثيرة ويلهبه! حتى المساء ظل فكرى الذى لا أحب أن اصف إضطرابه لاشاغل له الا إنتظارها . فهل من الممكن أن أكون وقعت في حب ايزابيل ! كلا بالطبع ولكنى تماديت في لهوى حتى تحرك قلبى . بكل هذا العنف فكيف لا يختلط على الامر ؟ لقد صادفت في فضولى كل ما يصحب الغرام من شوق وإرتباك كولهوة ولم تزدنى كلمات القس الأخيرة غير حماسة وتصميما وماذا يمكنه أن يفعل بى جراسيان ؟ سوف اسير فوق الشوك والجمر لو إقتضى الأمر .

لاشك أن امرا ما غير عادى كان يدبر . ففى المساء لم يقترح أحد اللعب وما أن انتهينا من العشاء حتى بدأت مدام دى سيان – أورتول تشكو مما كانت تطلق عليه " رفصا " – واذ بها تنسحب بدون إستئذان بينما تعد لها الأنسة فيردور شرابا ساخنا . وماهى الا لحظات حتى طلبت مدام فلوش من كازيمير ان يذهب لينام . وماى ان انصرف الصبى حتى قالت لى :

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب في النوم أيضا فيبدو أن النعاس يداعب أجفانه

ولما لم أحب على تعليقها أضافت قولها :

- آه . . أعتقد أن مامن أحد سيطيل السهر اكثر من ذلك

نهضت الأنسة فيردور لتشعل الشموع وسرت في أثرها أنا والقس فرأيت مدام فلوش تميل على زوجها الذى كان يغط في نومه فوق المقعد بالقرب من الموقد فنهض من فوره ثم سحب البارون من ذراعه فأطاعه هذا

الآخر كما لو كان يدرك معنى تلك الحركة • وعلى بسطة الطابق الاول كان كل منا يحمل سمعته فانصرف كل الى حجرته • وعندئذ قال القس بإبتسامة غمضة :

- طابت ليلتك ! هنتت بنومك •

اغلقت باب حجرتي ومكثت أترقب لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة سمعت مدام فلوش وهى تصعد الى حجرتها ثم سمعت الأنسة فيردور وقعت مشادة حامية على بسطة السلم بين مدام فلوش ومدام دى سان - اوريول التى كانت قد خرجت من حجرتها • وكأننا بعيدين عنى بحيث لم أتمكن من تمييز متبادلة منالافاظ ثم سمعت ضوضاء أبواب تغلق ثم لم أعد اسمع شيئاً •

تمددت في فراشى حتى أنصرف الى التفكير فاستعدت التمنيات الطيبة بالنوم الهانئ التمنيات التى ودعت بها القس وتمنيت لو عرفت هل تهيأ هو للنوم أم انه إستعد للفضول الذى أنكرة امامى ؟ ولكنه كان يرقد في جناح آخر من القصر يقع في الطرف المقابل لحجرتى ولم يكن هناك من سبب وجية يبرر إنتقالى اله • ومع هذا فمن منا سيكون اكثر حرجا لو فاجأ الآخر في الدهليز ؟ • وبينما أنا غارق في التفكير وقع لى حادث سخيف مخجل لايمكن أن اصرح به فغلبنى النوم • أجل فالاجهاد الذى تملكنى من طول الانتظار بعد الليلة السابقة التى امضيتها أرقا قلقا تغلب على رغبتى وحرصى على البقاء ساهرا يقظا فاستغرقت في نوم عميق •

إستيقظت على طقطقة السمعة وهى توشك على النفاذ او ربما أستيقظت على حركة هزت أرضية الدهليز في صوت مكتوم سمعتها اثناء نومى ولا شك أن احدا سار في الدهليز فاعتدلت جالسا في تلك اللحظة إنطفأت شمعتى فظلمت في ظلام الليل حائرا ولم يكن معى مايضىء غير بضعة اعواد من الثقاب حككت أحدهما لاتبين الوقت من ساعتى كانت الحادية عشرة والنصف فارهقت سمعى ولكنى لم أعد أسمع شيئاً قمت أتسسس طريقى حتى بلغت باب الحجرة ففتحته •

كلا لم يكن قلبى يدق رجفه أو إضطرابا بل كنت أشعر أننى خفيف الجسم رابط الجأش مطمئن النفس متفتح الذهن حازم الامر •

في الطرف الآخر للدھليز كانت ثمة نافذة ترسل ضوءها فيصلنى غير رائق ولا صافى كضوء الليالى الهادئة وإنما ضوء اخفاقا ينجلى حيناً وستتر حيناً آخر فقد كانت السماء تمطر وكانت الرياح أمام القمر تحمل سحباً كثيفة • كنت قد خلعت حذاءى فتقدمت بدون ضوضاء • • • لم أكن بحاجة الى امعان النظر لاصل الى المكان الذى كنت أعدده للمراقبة • كان يمثل حجرة صغيرة مهجورة بجوار حجرة مدام فلوش حيث كان يدور الهمس بعيدا عنالعيون كان السيد فلوش يشغل هذه الحجرة في البداية (لكنه اصب حالان يفضل كتبه على زوجته) وكان الباب الذى يصل اليها قد فتح قليلا وكنت قد احكمت إغلاقه بالمزلاج حتى اتجنب المفاجأة فتأكدت انى استطيع أن انظر بعينى من تحت إطار البان • ولكى أبلغ ذلك كان لابد لى أن اجلس فوق خزانه كنت قد دفعتها قريبا من المكان •

في تلك اللحظة كان يتسرب من تلك الفتحة بصيص من النور ينعكس على سقف الحجرة الابيض فيهدينى ويرشدنى ووجدت كل شىء على حاله التى تركته عليها في النهار • صعدت فوق الخزانه وتجولت ببصرى في أرجاء الحجرة المجاورة •

كانت امامى على بعد خطوات منى . . . جالسة على مقعد منخفض بدون مسند وقد تسبب وجوده في تلك الحجرة العتيقة في دهشتى لانى لا أذكر انى رأيته فيها عندما دخلتها احمل الزهور كانت مدام فلوش تجلس غارقة في مقعد وثير ضخمة . كان الى جانب المقعد منضدة صغيرة عليها مصباح يلقى عليها وعلى الانسة ايزابيل ضوءا خافتا كانت ايزابيل تدير لى ظهرها وكانت تميل الى الامام فتكاد تكون راقدة في حجرة خالتها العجوز بحيث لم اتمكن في البداية من رؤية وجهها . وسرعان ما رفعت هامتها وكنت اتوقع ان اراها وقد تقدمت في السن . مع انى لم اكد أتعرف في وجهها على تلك الفتاة التى طالعتها في الصورة . وهذا لايعنى انها كانتاقل جمالا من الصورة بل كان جمالها من نوع اخر جمال اقرب الى عالم الارض ودنيا البشر . إن تلك البراءة الملائكية التى تطالعتها في الصورة زالت ليحل مكانها وجه ناعس ساهم عاطفى . إرتمت في طرفى شفتيها علامة تنم عن نفور لأدري كنهه بينما كانت في الصورة فاعرة الشفتين وكانت تتدثر معطف سفر ضد الماء من قماش شائع في ذلك الوقت . ولما كان المعطف مرفوعا من ناحية فقد أبان عن ثوب اسود لامع تدلت عليه يد تعرت من قفازها تمسك بمنديل وكانت هذه اليد تبدو شاحبة هزيلة بطريقة غريبة كان رأسها مكسورا بغطاء من اللباد والريش المموج يحيط به شريط منالحرير تدلت من تحته خصلة من الشعر الفاحم . وما أن تميل براسها حتى تتطرح الى الايام فتحجب وجنتيها كان الناظر يظنها في لباس حداد لولا شريط لامع اخضر يطوق رقبتها . لم تكن تنطق بكلمة لاهى ولا مدام فلو شالا انها كانت تربى بيدها على ذراع مدام فلوش وتجذبها نحوها ثم مالبت ان انهالت عليها لثما وتقبيلا .

رأيتها بعد ذلك تهز رأسها فتتمايل خصلات شعرها وتهفهم ذات اليمين وذات اليسار وعندئذ قالت وكأنها تعقب على عبارة قالتها من قبل

- كل الوسائل . لقد جربت كل الوسائل اقسام لك . . .

فقاطعتها العجوز المسكين وهى تضع يدها فوق جبين الفتاة :

- لاتقسمى يابنيتى المسكينة اصدقك بدون قسم

كل منهما كانت تتحدث بصوت منخفض اشبه بالهمس كما لو كانتا تخشيان أن يسمعهما احد . إعتدلت مدام فلوش في جلستها ودفعت إبنة اختها برقة ثم استندت على ذراعى المقعد ونهضت . وبالمثل نهضت الانسة دى سان - اوريول وبينما كانت العجوز تتجه نحو الخزانة التى كان كازيمير قد أخرج منها الصورة اول امس تقدمت الفتاة في الاتجاه نفسة بضع خطوات وتوقفت امام مائدة صغيرة ملتصقة بالجدار وفوقها مرآة كبيرة . وبينما كانت العجوز تنقب في احد الادراج لمحت الانسة في المرأة الشريط الزمردى الذى يطوق عنقها فبادرت بنزعة بسرعة ولفته حول اصبعها . . وقبل اء تلتفت مدام فلوش كان الشريط قد اختفى كانت ايزابيل قد اتخذت هيئة التفكير والتأمل وتدلت يداها الى الامام متشابكتين وغابت نظرتها .

كانت مدام فلوش لاتزال تمسك باحدى يديها بحزمة المفاتيح وفي يدها الاخرى لفة صغيرة من الاوراق اخرجتها منالدرج وكانت تهتم بالجلوس في مقعدها الوثير عندما فتح الباب المواجه للباب الذى كنت اقف عنده فجأة وعلى سعته كدت اصيح من هول الدهشة فقد ظهرت البارونه في إطار الباب شعشاء مكشوفة الجبين

محضبة الوجه في ثياب فضفاضة وعلى رأسها غطاء ضخم من الريش . كانت تحمل شمعدان ذو ست شعب أخذت تهزّة بعنف كانت كل شموعه مشتعلة فتغمرها بضوء خفاق وتنتشر على الأرض قطران من النور . ولما كانت منهكة القوى اسرعت بوضع الشمعدان فوق المائدة الصغيرة التي تحمل المرآة ثم عادت بأربع خطوات خفيفة الى مكانها في اطار الباب وتقدمت من جديد في خطى منظمة وبطريقة مهيبّة تشيح بيدها الميقلّة بالخواتم الضخمة وما ان بلغت منتصف الحجرة حتى توقفت والتفتت مرة اخرى ناحية إبنّتها وقالت وهي لاتزال متوترة الحركة بصوت يكاد يخترق الجدران :

- اليك عنى ايتها الابنة العاقلة لن أتأثر بدموعك وشكواك التي ضلت طريقها الى قلبي الى الابد .

جاء قولها بطريقة خطابية شبيهة بالصراخ بتغمة واحدة . وهنا كانت ايزابيل قد ارتمت عند قدميها وامسكت بطرف ثوبها وجذبتّه كاشفة عن حذاء ين صغيرين منالحرير الابيض واخذت تضرب بجبينها الأرض التي كان يكسوها بساط . الا أن مدام سان – اوريول لم تخفض بصرها لحظة واحدة واستمرت تصوب نظراتها حادة جامدة كصوتها الى الامام ثم قالت :

- أو لم تكنفى بجلبك الشقاء لاهلك وتريدى أن تتماذى . . . عندئذ خانها صوتها فجأة فالتفتت ناحية مدام فلوش

وكانت هذه قد تضاءلت واخذت ترتجف في مقعدها الوثير وخاطبتها قائلة :

- أما انت يا شقيقتى فلو كان الضعف لايزال . . .

ثم استدركت قائلة :

- لو دفعك ضعفك الاثم الى النزول مرة اخرى على تضرعاتها ولو كان ذلك بقبلة ولو كان ذلك بأقل عطاء فتأكدى مثل تأكدك بأننى شقيقتك انى سأهجرىك ولن ترى وجهى ماحييت

كنت كما لو كنت في مسرح ولكن لما كانت هاتان السيدتان لاتتمكانان من ملاحظة نفسيهما فلم ياترى كائتا تمثرن هذه المأساة ؟ كذلك كانتالفتاة مبالغة فيحركاتها وإيماءاتها متكلفة مثل امها . . . كانت الام تواجهنى بحيث كنت ارى ايزابيل من ظهرها وقد ركعت وإتخذتوضع استير الاسطورى وهى تتضرع واذا بى ارى قدميها المنتعلتين حذاء حريريا بلون الخوخ . هكذا بدا لى تحت طبقةالوحد التي كانت تعلو كانت ترتدى جوربا ابيض رأيتّه اعلى الحذاء وقد ترك عليه طرفى الثوب المبلل الموحد عندما رفع بقعة قذرة . . . وفجأة دوى في اعماقى كل ما تحكىة هذه الاشياء من مغامرات وشقاء فاق في قوته شتائم العجوز . . . واذا بعبرة تخنق حلقى فققرت ان الحق " بايزا " في الحدقة عندما تغادر القصر .

عندئذ كانت مدام فلوش قد تقدمت ثلاث خطوات مقتربة من مقعد مدام دى سان- اوريول :

- هيا اعطنى هذه الاوراق المالية أتعقدين انى لا اراها وانت تفركيها تحت قفازك ؟ أتعقدين أنى عمياء أو مجنونه ؟ أعطنى هذه النقود قلت لك ما أناستولت على النقود حتى قربتها من لهب احدى شموع اشمعدان بطريقة مسرحية وهى تقول :

- أفضل أن اقوم بأحراقها جميعا (مع انها لم تفعل ذلك) على ان اعطيها فلسا واحدا

دست الاوراق المالية في جيبها وأستأنفت قولها :

- ايتها الابنة العاقة .. ايتها الابنة الجاحدة .. الطريقة التي سكلتها اساورى وعقدانى ستجعلين خواتمى تسلكها هي الاخرى

كانت تقول ذلك وهي تهز يدها الممدودة في حركة خفيفة فسقط خاتمان فوق البساط فما كان من ايزابيل الا أن إنقضت ككلب جائع ينقض على العظام
- انصرفى الان لم يعد بيننا ما يقال أنا بريئة منك ..

تناولت مطفأة للشموع من فوق المنضدة واخذت تطفئ الواحدة بعد الاخرى ثم إنصرفت .

بدت الحجرة مظلمة كانت ايزابيل قد نهضت فمررت اصابعها على وجنتيها وطرحت خصلاتها الى الخلف وهي متناثرة واصلحت من وضع قبعتها . هزت جسدها فعدلت المعطف الذى انحسر عن كتفيها قليلا ثم مالت على مدام فلوش لتودعها لاح لى انالمرأة المسكينة كانت تحاول ان تحدثها فما كان من ايزابيل الا ان تناولت إحدى يدى العجوز المرتجتين وضغطت عليها بشفتيها دون ان تنبي بحرف واحد . وماهى الا لحظة واحدة حتى إنطلقت الى الدهليز في اثرها .

فى اللحظة التكننت اهبط فيها السلم اوقفنى صوت ما فعرفت فيه صوت الانسة فيردور التى لحقت بها ايزابيل في المدخل ورأيتها وأنا اميل على الدرابزين وكانت أوليمب فيردور تمسك بيدها مصباحا صغيرا كانت تقول :

- هل ستذهبين دون ان تقبلية ؟

فهمت انها تتحدث عن كازيمير .

- ألا تريدين أن تلقى نظرة عليه ؟

- كلا يالولى أنى متعجلة للغاية لاينبغى أن يعرف انى جئت .

اطبق صمت وحركات لم ادرك معناها في البداية ثم إضطرب المصباح عاكسا ظلالات متراقصة

تقدمت الانسة فيردور وتقهقرت ايزابيل بضع خطوات ثم سمعت :

- بلى بلى ذكرى لك منى إحتفظت به منذ وقت طويل أما الان فقد تقدمت بى السن فماذا افعل به ؟

- لولى لولى أنت خير ما اتركه هنا

ضمته الانسة فيردور بين ذراعيها :

- أه ! يا للمسكينة ! إنك مبلله تماما .

- امعطف فقط ليس هناك من خطر دعينى أذهب بسرعة

- خذى معطفايذك المطر على الاقل

- كف المطر والمصباح

- ماذا سأفعل به ؟ العربة قريبة جدا الوداع ..

- الوداع يا ابنتى المسكينة أتمنى من الله ...

غابت بقية العبارة في النحيب ومكثت الانسة فيردور بضع لحظات ماثلة بجسمها في ظلام الليل
• وصعدت هبريح رطبة من الخارج الى بير السلم • ثم سمعت الانسة فيردور تدفع المزلاج في الباب الذي
كانت قد اغلقته •

لم يكن ممكنا أن امر امام الانسة فيردور • • وكان جراسيان يحمل في كل مساء مفتاح باب المطبخ
وكان هناك باب اخر في الطرف الاخر منالقصر • كان من السهل أناخرج منه • لكن الطريق اليه كان طويلا
• وقبل ان ابلغة تكون ايزابيل قد وصلت الى عربتها • آه ! لو أناديها من النافذة • • أسرعت الى حجرتي كان
القمر قد عاد الى الاختفاء فانتظرت لحظة ارقب صوت الخطى فهبت ريح شديدة • وبينما كان جراسيان يعود
الى المطبخ سمعت من خلال حفيف الاشجار المضطربة عربة ايزابيل وهي تنطلق مبتعدة •

.....

اجلت كل ما يهمني وما ان عدت الى باريس حتى استغرقتني المشاغل التي صرفت اليها ذهني وإستأثرت بتفكيرى • كان القرار الذى إتخذته بخصوص عودتى الى الكارفورش في الصيف القادم قد خفف من حدة اسفى لانى لم اتماد في المغامرة التي كنت قد بدأت أنساها عندما تلقيت اشعارا مزدوجا في نهاية يناير • فقد توفي السيد فلوش ولحقت بهزوجه بعد فترة قصيرة • على المظروف تعرفت على خط انسة فيردور ولكنى ارسلت الى كازيمير بعبارت الاسف والمشاركة المألوفة وبعد اسبوعين تلقيت هذه الرسالة :

" عزيزى السيد جيرار •

(لم يرغب الصبى انيدعونى بلقب العائلة وكانقد سألتنى في احدى نزهاتنا وبالتحديد في اليم نفسه الذى بدأت أحدثه فيه بلا كلفه قال : مأسمك ؟ - ولكنك تعرفه ياكازيمير أسمى السيد لاکاز • • فعاد يقول : كلا لا اريد هذا اللقب اريد اسمك انت • •)

" جميل منك أنت تكتب لى كان خطابك جميلا لان الكارفورش الان اصبحت حزينة أصيبت جدتى بوعكة يوم الخميس ولم يعد بإمكانها مغادرة حجرتها وقد عادت والدتى الى الكارفورش ورحل الاب عنها لانه عين خوريا في بروى " كان موت خالى وخالتى بعد ذلك مات خالى اولا وكان يكن لك حبا كبيرا وفي يوم الاحد التالى ماتت خالتى بعد مرض ثلاث ايام لم تكن امى موجودة وكنت وحدى مع لولى ويلفين زوجة جراسيان وهى تحبنى كثيرا كان امرا يبعث على الحزن والاسى لان خالتى لم تكن تريد أن تفارقتى • ولكن لم يكن هناك مفر من ذلك • أنا الان انام في حجرتى بجوار ديفلين لان لولى تركتني الى اخ لها استدعاها في " الاورن " وجراسيان ايضا لطيف معى للغاية علمنى طريقة الغسل وتلقيح الاشجار وهو ما يسلينى كما اساهد في تحطيم الاشجار • تذكر الورقة التى كتبت لى فيها تعهدك • عليك بنسيانها فلن يكون هنا احد في استقبالك الا انه يحزننى كثيرا الا اراك مرة اخرى لانى احببتك حبا صادقا ولن انسك • صديقك الصغير كازيمير • "

لم اكثر كثيرا لوفاة السيد فلوش وزوجه لكن هذه الرسالة العفوية حركت مشاعرى كنت مشغولا وقتها الا انى اخذت عهدا على نفسى بأن اخرج في جولة استكشافية حتى الكارفورش ما ان تبدأ اجازة عيد الصبح • فماذا يعيننى في عدم استقبالى ؟ سوف انزل في " البون - ليفيك " واستاجر عربيه فهل انا في حاجة الى اضافة احتمال لقاء ايزابيل الغامضة والتي تجذبني قد شفقتى على الصبى ! كانت بعض فقرات الرسالة غامضة لى ووجدت عناء في ربط الاحداث مرض العجوز وصول ايزابيل الى الكارفورش رحيل القس وفاه العجوزين في غياب ابنه الاخت سفر الانسة فيردور • • هل ينبغى الا ارى في كل ذلك غير سلسلة من الاحداث العرضية ام كان ينبغى ان ابحت عن صله تربط بينها ؟ لو حاولت فلا كازيمير سيفيدنى ولا القس سيخبرنى •

اضطرت للانتظار حتى شهر ابريل وجاء اليوم الثانى من اجازتى فسافرت •

على محطة " بروى " لمحت القس سانتال يتهاى ليسقل قطارى فناديتيه فاجابنى قائلا :

- هل عدت الى البلدة مرة اخرى ؟
- لم اكن اتصور انى سأعود الها فعلا بهذه السرعة

صعدت الى ديوانى كنا فيه وحدنا

- ايه حدثت امور جديدة بعد زيارتك

- نعم علمت انك عينت خوريا في " بروى "

- دعك من هذا

مد يده في حركة فهمتها فقال

- هل وصلك اشعار ؟

- نعم وعلى الفور ارسلت بعزائى لتلميذك فهو الذى اخبرنى ولكنه لم يخبرنى الا بالقليل وكنت سأكتب لك لاسألك

بعض التفاصيل

- كان ينبغى أن تفعل ذلك

فأضفت ضاحكا :

- تصورت انك قد لاترحب باطلاعى على شىء

لكنه كان يبدو اقل تكتما مما كان ايام الكارفورش وبداعليه الاستعداد للكلام

- هل تصدق ان كل ما يحدث هناك ان يبعث على الاسى والحزن ؟

جميع الممرات سوف تمر بالمحنة نفسها •

لكنى لم ادرك قصدة من اول وهلة الا انى تذكرت عبارة كازيمير عندما قال " اعاون في تحطيم الاشجار "

فسألته بسذاجة :

- ولماذا ذلك ؟

- لماذا ؟ أه ياسيدى الطيب • سل إذن الدائنين عن ذلك • ثم ان الامر لايعنيهم بل ان كل شىء يجرى بدون

علمهم • الضبعة غارقة في الديون والأنسة دى سان – اوريول تسلب ما يمكنها سلبه

- هل هى هناك ؟

- كأنك لاتدرى

- استنتجت ذلك من بعض عبارات

- ساءت الامور منذ وصولها

صمت لحدة لكنه لم يتمكن من مقاومة حاجته للكلام هذالمرة • بل لم يعد ينصت لأسئلتى وجدت أن

الأفضل الا اوحه له سؤالا فاستطرد يقول :

- كيف علمت هى بشغل والدتها ؟ هذا مال ماجد له نفسيا وعندما علمت ان البارونة العجوز لم يعد فى إمكانها

مفارقة مقعدها حضرت بمتاعها ولم تجرؤ مدام فلوش على طردها • وهنا رحلت أنا •

- من المؤسف أنك تخليت عن كازمير بهذه الطريقة

- ربما لكن مكانى ليس جوار هذه المخلوقة • • نسيت أنك كنت تدافع عنها

- وقد أدافع عنها أيضا لو كان ثمة مجال لذلك ياسيدى الخورى
- كما تحب • نعم ، نعم فالآنسة فيردور كانت تدافع عنها ايضا وظلت تدافع عنها حتى رأت سيديها على فراش الموت •

راقنى أن القس تخلقى عن التأنق في إستخدام اللفظ الذى كان يتوخاه في الكارفورش • أصبح يستخدم من الایماءات والألفاظ مايميز خوريا في قرية نورماندية • إستأنف حديثه بقوله :

- هى أيضا وجدت من الغريب أن يموت الأثنان في وقت واحد
- هل ؟...
- أنا لا أزع شيئا

نفخ شفته العليا كعادته القديمة وعاد يقول :

- لايمنع أنهم بدأوا يتندرون في البلدة • ويسوؤهم ، ترث الفتاة خالتها أنت رأيت بنفسك أن الآنسة فيردور أثرت الرحيل
- ومن بقى الى جوار كازيمير ؟
- آه ! لعلك أدركت أن امه لاتصلح معشرا حسنا له ! وهو يقضى كل وقته عند آل " شوانتروى " أقصد البستانى وزوجته
- جراسيان ؟

- أجل جراسيان الذى عارض تحطيم اشجار الحديقة الا أنه لم يتمكن من منع شيء • إنها مأساة على كل لم يكن آل فلوش معدومين
- كل شيء سلب من اليوم الاول ياسيدى العزيز • كانت مدام فلوش تمتلك مزرعتين من الثلاث التى تتألف منها الكارفورش فبيعت هاتان المزرعتان منذ أمد للمزارعين • اما الثالثة من أملاك البارونة لكنها لم تعد تؤجر للفلاحين فكان جراسيان يشرف على محصولها وسرعان ماعرضت للبيع هى الاخرى •
- الكارفورش تعرض للبيع !
- بالمزاد • لكن هذا لن يتم قبل نهاية الصيف • صدقنى أن الآنسة تستفيد من هذا الوضع حتى يحين وقت البيع • وستبذل في سبيل ذلك ماوسعها فعندما يتم نزع نصف الاشجار • • •
- كيف يتقدم أحد لشرائها منها وهى لاتملك حق بيعها ؟
- آه ! أنت لا تزال شابا حدث السن • عندما تعرض السلعة بثمن زهيد تجد دائما من يشتريها
- أى محضر يمكنه أن يحول دون ذلك
- المحضر متفاهم مع مدير أعمال الدائنين وهو يقيم بالكارفورش ، مال على أذننى وقال :
- مادامت تريد أن تعلم كل شيء فاعلم انه ينام معها

سألته دون أن اظهر تأثرا بعبارته الاخيرة :

- وكتب السيد فلوش وأوراقه ؟
- سيعرض أثاث القصر مع المكتبة للبيع قريبا • بمعنى أصبح سيوقع عليها الحجز • ولحسن الحظ فأن احدا لايدرك قيمه بعض المؤلفات والا لأختقت منذ زمن

- وقد يظهر أفاق فجأة !
- الآن وضعت الاختام فلا تخش شيئا فلن ترفع الا عند الجرد
- وماقول البارونه في هذاكله ؟
- لاتدرك شيئا • فهم يقدمون لها الطعام في حجرتها • وهى لاتتعرف حتى أن إبتنتها موجودة بالقصر •
- وماذا عن البارون ؟
- مات منذ ثلاثة اسابيع في " كابن " في ملجأ كنا قد وقفنا في إدخاله اليه •
- بلغنا " بون ليفيك " فاقبل كاهن للقاء القس سانتال الذى إستأذن منى بعد أن دلنى على فندق ومؤجر عربات •
- أوصلتنى العربى التى إستأجرتها في اليوم التالى حتى مدخل حديقة الكارفورش وإتفقت مع صاحب العربى على أن يرجع بعد ساعتين ليعود بى بعد أن تكون الجياد قد إستراحت في حظيرة إحدى المزارع •
- وجدت باب الحديقة الحديدى مفتوحا علمصراعية كانت أرضية الممر قد تلفت من جراء عربات النقل •
- توقعت أن اشاهد أفطع مظهرا للدمار والخراب ولكنى فوجئت مفاجأة سارة أذ رأيت عند المدخل شجرة الزان ذات اوراق الخوخ وقد نبتت براعمها • لم أفكر أنها لاتدين بحياتها الا لدنو أخشابها • وبينما كنت أتقدم وجدت ان الفأس قد أتت على اجمل الأشجار وقبل أن اخوض في جوانب الحديقة أردت أن أزور الدار الصغيرة التى اكتشفت فيها رسالة ايزابيل ، ولكنى وجدت مكان مزلاجها المحطم قفلا مغلقا (علمت بعد ذلك أن الخطابين يكسسون في هذه الدار أدواتهم وملابسهم) • مضيت في طريقى متجها الى القصر • كان الطريق الذى سلكته مستقيما تحف به أشجار العوسج المنخفضة ولم يكد يؤدى الى واجهه القصر وإنما كان يؤدى الى جناح المرافق وينتهى الى المطبخ الذى يطل على باب بستان الخضروات وكنت لم أزل بعد بعيدا عن ذلك الباب عندما ششاهدت جراسيان يخرج منه حاملا سلة من الخضروات لمحنى ولكنه لم يتعرف على من أول وهلة فناديته فأقبل نحوى وبادرنى بقولة :
- آه ! السيد لاكاز ! حقا ما كان أحد يتوقع أ يراك في مثل هذا الوقت •
- أخذ يتطلع الى وهو يهز رأسه • لم يدارى تبرمه من حضورى ولكنه أضاف بلهجة اكثر رقة :
- ومع كل فسيسر الصبى لرؤيتك
- كنا قد مشينا بضع خطوات نحو المطبخ دون كلام فأشار لى بأن أنتظرة ودخل ليضع سلتته ثم عاد وقال لى بلهجة اكثر حفاوة :
- جنئت إذن لترى كيف تسير الأمور في الكارفورش
- يبدو أنها ليست على خير مايرام !
- نظرت اله إذ بذقنه يرتجف وظل ممسكا عن الاجابة وفجأة جذبنى من ذراعى واقتادنى الى العشب الذى كان يمتد أمام درج حجرة الاستقبال حيث كانت ترقد جثة شجرة زان ضخمة أذكر أنى أحتमित بها من المطر في الخريف • كان من ولها اكداس وحزم من أغصانها منزوعة عنها قبل اقتلاعها قال لى :

- هل تعلم كم تساوى شجرة كهذه ؟ إثنين عشرة بستانولة وهل تعلم بيعت بكم ؟ بيعت هى وأمثالها بأقل من بستانولة .

لم اكن اعلم انهم في تلك البلدة يطلقون كلمة بستانولة على قطعة النقود فئة العشرة فرنكان ولكن لم يكن ذلك وقت الاستفسار والاستيضاح كان جراسيان يتكلم بصوت مخنوق • التفت له فا ذبه يمرر ظهر يده على وجهه فيمسح دموعا أو عرقا • ثم ضم قبضته وقال :

- آوه ! يالهم من لصوص ! يالهم من لصوص ! عندما أسمعهم يضربون بسواطيرهم وفئوسهم أشعر بالجنون أن ضرباتهم تنهال فوق رأسى فأشعر برغبة في أن اصيح النجدة ! اللص ! وأشعر بالرغبة في القتل • أول أمس قضيت نصف النهار داخل القبو كان الصوت يصلنى ضعيفا • • في بادىء الامر وجد الصبى في عمل الحطابين شيئا من اللهو والتسلية وعندما كانت الشجرة تشرف على السقوط كانوا ينادوهه ليشد الحبل معهم • لكن عندما إقترب هؤلاء الافاقون من القصر وهم يواصلون إقتلاع الاشجار بدأ الصبى يشعر بأن الأمر لم يعد مدعة للتسلية • واذ به يخاطبهم بقوله " آه ! دعوا تلك " فقلت له " يا صغيرى المسكين حتى لو تركوها فلن تكون لك هى وغيرها " وأخبرته بأنه لن يستطيع البقاء في الكارفورش ولكنه صغير لا يفهم أنهم سلبوه كل شىء • لو أبقونا في المزرعة الصغيرة لما توانيت عن أخذه معنا ولكن احدا لايدرى من سيشتريها ومن سيكون الوغد الذى سيحتل مكاننا فيها • • وكما ترى ياسيدى فانا لست عجوزا بعد ولكنى كنت افضل أن أموت قبل أن أرى كل هذا

- ومن يقيم بالقصر الآن ؟

- لا أريد أن اعرف ذلك • الصغير يتناول طعامه معنا في المطبخ • وهذا خير له • والبارونة لم تعد تفارق حجرتها • وهذا لحسن حظها المكينة وديلفين هى التى تحمل اليها وجباتها عن طريق سلم الخدم حتى تتجنب لقاء من لاتحب • أما الاخرون فلديهم من يقوم على خدمتهم ونحن لانتحدث مع أحد

- ليس من الفروض أن يوقع حجز على الأثاث قريبا ؟

- عندها سنحاول ، نصطحب سيدتى البارونة الى المزرعة حتى تعرض للبيع مع القصر •

سألته مترددا لانى لم اكن أدرى كيف أدعونا :

- والانسة • • • وإبنتها ؟

- يمكنها ان تذهب حيث تشاء بعيدا عنا • فكل ما يحدث هو بسببها •

كان صوته يرتجف من شدة الغضب بحيث ادركت كيف استطاع هذا الرجل ان يصل الى حد إرتكاب جريمة للذود عنشرف سادته •

- هل هى الآن بالقصر ؟

- فى هذه الساعة لا بد أنها تنتزرة فى الحديثة • ويبدو أن ما يحدث لا يضيرها فهى تتطلع الى الحطابين وفى بعض الايام تتحدث معهم بلا حياء • لكن عندما تمطر السماء لاتفارق حجرتها • أنظر ها هى حجرتها تلك التى تقع فى الزاوية وهى تقف ملتصقة بزجاج النافذة تتطلع الى الحديثة • لو لم يكن رجلها فى " ليزبو " منذ ربع ساعة لما وجدتني بالخارج • آه ! هذه هى المدنية ياسيد لاكاز • لو قدر لسادتى المساكين أن يعودوا ليروا ما يحدث فى عقر دارهم لأسرعوا بالعودة الى مثواهم •

- كازيمير هل هو هنا ؟

- يتنزه أيضا في الحديقة • هل تريد أن أستدعيه ؟
- كلا سأعرف كيف اعثر عليه بنفسى • الى اللقاء قريباً • سأعود لرؤيتك طبعاً أنت وديفلين قبل الرحيل •
- بدا الدمار الذى احدهه الحطابون بشعا في ذلك الوقت الذى يتهياً فيه كل شىء ليبيعث من جديد • في ذلك الجو الفاتر كانت أفنان الاشجار تمتلىء وتنتفخ وتنبت فيها البراعم • كان كل غصن قطع من شجرته يبكى عصارته • كنت أتقدم في خطى وثيدة وأنا مكتئب النفس • وكان يزيد اكتئابى ما كان يبعثه المشهد حولى من ألم • ربما كنت ثملاً من شدة الاريج النباتى الذى كان يخرج من الشجر المحتضر ووبطن الأرض
- انما يمثل ذلك التعارض بين تلك الأشلاء من الموتى والربيع الوليد لا يكاد يؤثر في نفسى وهكذا لم تكتفت الحديقة وفتحت ذراعيها للنور الذى بدأ ويصبغ مافيها من موت وحياة بلونه الهبى • ومع ذلك فقد كانت دقات قلبى السعيدة تصاحب النغمات الحزينة التى كانت تأتىنى من بعيد صادرة عن الفئوس التى كان صداها الجنائزى يملأ الأرجاء • وكانت الرسالة القديمة التى حملتها معى وآليت على نفسى الا استفيد منها مع أنى في بعض الاحيان كنت اضمها الى قلبى تلهبه وتضرم فيه النار • كنت احدث نفسى قائلاً : لاشىء يستطيع أن يعترض سبيلى اليوم • • • وإبتسمت عندما شعرت أنى أسرع الخطى لمجرد التفكير في ايزابيل • لماكن مدفوعاً في ذلك بإرادتى ولكن كانت بداخلى قوة تدفعنى الى ذلك •
- عجبت لما في الدار من وحشية زادت ببهاء الطبيعة في عيني وعجبت كيف أن إغتيال القس لايزابيل لم ينجح في إبعادى عنها • وأن كل ما كنت اكثفه فيها يلهب شوقى اليها • • • ماذا ياترى لايزال يربطها بهذه الاماكن التى تفيض ذكريات بغيضة ؟ كنت أعرف أنه مامن شىء سيبقى لها من الكارفورش عندما تباع ولن يبلغها منها عائد • فلماذا لم تلذ بالفرار ؟ صور لى خيالى أن أقوم باختطافها ذلك المساء في عربتى فاسرعت خطاى • بل كنت أعدو تقريباً عندما فوجئت بها على بعد مسافه منى • كانت هى بلا شك في ثياب الحداد عارية الرأس جالسة فوق جذوع شجرة محطمة تعترض الممر • دق قلبى بشدة لدرجة انى اضطررت للتوقف بعض الوقت وتقدمت في اتجاهها بخطى بطيئة وهدوء كما المتنزه الذى لا يعبأ بشىء • وما أن بلغتها حتى سألتها :
- معذرة ياسيدتى • • أنا الان في الكارفورش اليس كذلك ؟
- الى جوارها فوق جذع الشجرة كانت توجد سلة لاشغال الأبرة مليئة ببكرات الخيط وأدوات الحياكة وقطع من قماش الكريب ملفوفة على بعضها او منكوشة • وكانت منصرفة الى تثبيت اجزاء من هذا القماش فوق غطاء متواضع للرأس مصنوع من اللباد كانت تمسكه بيدها • رأيت على الارض شريطاً اخضر يبدو أنها تزعتة عن غطاء الرأس منذ قليل • كانت تتدثر بمعطف صغير اسود يغطى كتفيها • عندما رفعت هامتها أبصرت الابرزيم المبتذل الذى كانت تغلق به ياقة المعطف لم أشك في انها لمحتنى من بعيد لأن صوتى لم يفاجئها • قالت
- جئت تشتري الضيعة ؟
- قالت بصوتها الذى تعرفت عليه فدق له قلبى • كم كان جبينها المكشوف جميلاً !
- أوه ! بل جئت زائراً • كانت الابواب الحديدية مفتوحة رأيت أنا سا يتجولون فهل اكون متطفلاً اذ دخلت ؟
- كل من يريد الدخول يستطيع أن يدخل الآن

واطلقت زفرة عميقة لكنها عادت لعملها كأنما لم يعد بيننا ما يقال •

ولما لم أكن أدري كيف أواصل حديثاً قد يكون الوحيد بيني وبينها فكان يجب ان يكون قاطعاً ونهائياً حديثاً بدا لى ان الوقت لم يحن بعد للخوض فيه فقد كنت انوى ان احتاط له قبل طريقه • ولما كان عقلى وعاطفتى قد فاضا بالانتظار والاسئلة التى كنت لا اجروء بعد على توجيههما مكثت امامها ادفع بطرف عصاى شظايا الخشب وانا مرتبك بين قحة شديدة وسذاجة مفرطة في الوقت نفسه حتى رفعت بصرها وتفرسته في وجهى فظننت أنها ستنفجر ضاحكة الا انها قالت بكل بساطة وربما لاننى كنت اضع قبعة رخيصة اغطى بها شعرى الطويل ولم يكن يبدو ان ثمة عملا فعليا يستعجلنى :

- هل انت فنان ؟

فأجبت مبتسما :

للأسف لا ! ولكنى اتذوق الشعر رغم ذلك ودون أن اجروء على النظر الها شعرت أن نظرتها تطوقنى وأن ما دار بيننا من حديث منافق مبتذل بغيض الى نفسى وانى اتألم اذ انقله فاستأنفت حديثى قائلاً :
كم هى جميله هذه الحديقة !

لأجل لة انها لاتريد الا ان تتحدث ولم يكن يحيرها - مثلى - الا كيفيه الدخول في المناقشة فقد صرحت بأنى لا استطيع الان للأسف ان اتصور ما يمكن ان تصبح عليه الحديقة في فصل الخريف فهى لاتزال بمنأى عن الشتاء وبرده • كذلك لا استطيع ان أنتبأ بما سيبتقى منها بعد هذا العمل الرهيب الذى ينزله بها الحطابون فصحت قائلاً ك

- الا يمكن منعهم ؟

فردت ساخرة وهى ترفع كتفها عاليا :

- منعهم ؟!

ظننت انها تريبنى قبعتها البائسة كشاهد على رقه حالها • الا انها رفعتها لتضعها فوق رأسها مطروحة الى الوراء كاشفة جبينها • ثم شرعت في ترتيب قطع القماش الكريب كأنما تنتهياً للانصراف • فانحنيت عند قدميها والنقطت الشريط الاخضر وقد منه لها •

قالت دون ان تتناوله :

- ماذا اصنع به الان ؟ انك رى انى في ثياب الحداد

عبرت لها فوراً عن الحزن الذى شعرت به عندما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجة ووفاه البارون بعدهما • فلما ابدت دهشتها لمعرفتى اهلها اخبرتها انى عشت بينهم اثنى عشر يوماً في اكتوبر الماضى •

عقبت في الحال قولها :

- لماذا زعمت منذ قليل انك لاتعرف اين انت ؟

- لم اكن ادرى كيف ابدأ الحديث معك .

ودون ان اشتفيض في الكشف عما في داخلي بدأت احديثها عن الفضول الشديد الذى أبقانى في الكارفورش يوما بعديوم أملا في لقائها (لم احديثها عن تلك الليلة التى تطفلت عليها فيها) ثم حدثتها عن اسفى لعودتى الى باريس دون رؤيتها فقالت :

- وما مبعث كل هذه الرغبة في معرفتى ؟

لم تعد تتظاهر بالأنصراف ، وكنت قد جذبت حزمة ضخمة من الخشب وضعتها امامها بالقرب منها وجلست عليها . فلما كان وضعى منخفضا عنها رفعت بصرى لألراها وكانت منصرفه بطريقة صبيانية الى لف شرائط الكريب فلم اعد احظى بنظراتها . وحدثتها عن صورتها وأبدت قلقى لما يمكن أن تصير اليه هذها الصورة التى كنت مغرما بها ولكنها لم تدر من أملر ذلك شيئا وازافت وهى تطلق ضحكة تألمت لجفافها :

- ربما يعثرون عليها عندما يرفعون الاختام ثم تعرض للبيع مع غيرها وتستطيع ان تحصل عليها مقابل بضعة نقود اذا كان قلبك لايزال متعلقا بها .

عبرت لها عن اسفى اذا لم تأخذ شعورى نحوها مأخذ الجد . واوضحت لها أنى اذا كنت فاجأتها بالتعبير عنه فإنه يشغل بالى منذ فترة طويلة . الا أنها ظلت جامدة كأنما قررت الا تسمع بعد ذلك شيئا منى . كان الوقت يمضى سريعا . ألم يكن عندى ما أقطع به صمتها ؟ كانتالرسالة الملتهبة تنتفض بين اصابعى . وكنت قد فكرت في قصة إختلقها عن علاقات قديمة بين عائلتى وعائلة جونفريفل بهدف حملها على الكلام . ولكنى في تلك اللحظة لم اشعر الا بسخافة هذه الكذبة وبدأت اروى لها قصة المصادفة الغريبة التى اوقعت هذه الرسالة في يدى . ناولتها الرسالة قائلا :

-آه ! أتوسل اليك ياسيدتى لاتمزقنى هذه الرسالة ! أعيدها الى . كان وجهها قد شحب شحوب الموت وظلت لحظة دون أن تقرأالرسالة المفتوحة فوق ركبتيها غامت نظراتها ورجفت أهدابها واذ بها تهمهم قائلة :

- نسيت أناستعيدها ! كيف نسيتها ؟!

- ربما إعتقدت أنها وصلته أو أنه حضر لأخذها . . .

كانت لاتزال منصرفه عنى لاتعيرنى سمعا واتيت بحركة لاسترداد الرسالة ولكنها أساءت تفسير حركتى فصاحت بى قائلةوهى تدفع يدى في خشونة :

- دعنى !

ونهضت رغبة في الفرار فجثوت أمامها أستبقياها :

- لاتخافى منى ياسيدتى فأنا كما ترين لا أريد بك سوءا . وعندما عادت الى الجلوس او بالاحرى عندما إنهارت خائرة القوى توسلت اليها الاسيخظ على إن كانت الصدفة قد إختارتنى لأكون أمينا على سرها رغما عنى .

وتوسلت اليها أن تبقى على هذه الثقة التي أقسمت الا اخونها ما حبيبت • أه ! لماذا لاتحدثني كصديق حميم لا يعرف من امرها الا ماتطلعه عليه بنفسها ؟

ربما أقنعتها عبراتي التي ذرفتها اكثر مما اقنعها حديثي وعدت أقول :

- وأأسفاه ! أعلم فظاعة الموت الذى سلبك حبيبك في تلك الليلة ••• ولكن كيف بلغك هذا الخبر المشئوم ؟ وماذا صور لك كخيالك في تلك الليلة وأنت عاكفة على إنتظاره مستعدة للهرب معه ؟ وماذا صنعت عندما وجدت أنه لا يظهر ؟

قالت بصوت حزين :

- طالما أنك تعلم كل شىء فأنت تعلم طبعاً أنى لم أكن أنتظرة بعد أن اخبرت جراسيان

وفجأة تجلت الحقيقة في ابشع صورها فلم استطع أن امسك نفسى عن الصياح :

- ماذا ؟ أنت التي اوعزت بقتله ؟

وهنا هوت منها الرسالة والسلة على الارض وتناثر ما كان فيها من اشياء ووضعت جبينها بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء بغير وعى فملت عليها وحاولت ا، تناول يديها بين يدي فصدتني قائلة :

- كلا أنت جاحد قاس

كانت صيحتى الهوجاء قد أتت على إطمأنانها من ناحيتى فقطبت جبينها وعبست في وجهى وكنت لا أزال جالسا أمامها وقد عقدت العزم على الا افارقها قبل أن تصرح لى بأكثر مما عرفت • أخيراً هدأ نشيجها فأقنعتها بهدوء أنها استطردت في الكلام بحيث لا تستطيع أن تمسك عنه دون إيذاء • وأنها لو افضت لى باعتراف صادق فلن يقلل ذلك من شأنها في نظرى وانه لا يحز في نفسى اكثر من لزومها الصمت • أسندت مرفقيها على ركبتيها وحجبت جبينها بيديها المتشابكتين وقصت :

كانت قد كتبت هذه الرسالة في الليلة السابقة لليلة التي قررت يها الهروب • كتبتها في غمار لوعة الغرام التي تملكها في تلك الليلة • وفي الصباح حملتها الى الدار ووضعتها في ذلك المكان السرى الذي كان يعرفه " بلير جونفريفيل " وكانت تعلم انه سرعان ما سيأتى لاختها ولكنها ما أن عادت الى القصر ووجدت نفسها في تلك الحجرة التي كانت تريد أن تغادرها الى الأبد تملكها ضيق لا يمكن وصفه وخوف من تلك الحرية المجهولة التي طالما تلهفت لها والخوف من ذلك العاشق الذي كانت لاتزال تتوق اله والخوف من نفسها ومما كانت تخشى الأقدام عله • أجل كانت قد اتخذت قرارها أجل وأبعدت عنها كل ريبة أوشك وأرتضت ان تجرع العار ولكنها ما أن وجدت أنه ليس هناك مايقيدها ويحول بينها وبين الباب المفتوح للفرار ضعفت ولم يطاوعها قلبها وباتت فكرة الفرار بغیضة الى نفسها لاتطبيقها فأسرعت وأبلغت جراسيان أنالبارون جرونفريفيل عقد العزم على اختطافها من أهلها هذه الليلة بالتحديد وأنه قد يجده وهو يحوم قبل المساء بالقربمن الدار ولا بد من منعه من الاقتراب •

عجبت لأنها لم تذهب لتسترد الرسالة بنفسها وتستبذلها بغيرها لصد عشيقها عن مشروعة الجنونى ولكنها كانت لاتتوانى عنالتهرب من اسئلتى وأخذت تردد وهى تبكى أنها تعلم تماما أنى لا يمكن أن أفهمها وأنها لاتستطيع أن تفسر أفضل من ذلك ولكنها فى ذلك الوقت كانت تشعر أنها عاجزة عن صد عشيقها عاجزة عن اللحاق به • كانالخوف يشل حركتها فأصبح رجوعها الى الدار أمرا فوق طاقتها ثم فى تلك الساعة من النهار كان ابواها الرهيبان يراقبانها ولهذا اضطرت للجوء الى جراسيان •

- هل كان بوسعى أن اقدر أن جراسيان سيأخذ مأخذ الجد ذلك الكلام الذى قلت منى فى غمرة هذيانى ؟ تصورت أه سيكتفى بإباعدة وانتفضت فزعا عندما سمعت بعد ساعة طلقا ناريا بالقرب من الباب الحديدى الا ان تفكيرى تحول عن الاحتمال الرهيب الذى لم أتصوره بل على العكس فبعد أناخبرت جراسان هدا فكرى وقلبى وشعرت بالابتهاج •• ولكن عندما هبط الليل ودنت الساعةالتى كان من الفروض أنتكونموعدا لفرارى وجدتنى أنتظر رغما عنى • وبدأ الأمل يداعبنى ويمتزج بياس • نوع من الاطمئنان الذى كنت أعلمتماما أنه كاذب • لم أكن استطيع تصور أن أجبن لحظة أو إنهيار ساعة زمن يمكن أن يقضى دفعة واحدة على حلمى الطويل فلم أكنقد أفتت بعد من حلمى واذا بى كأننى فى حلم أهبط الى الحديقة ارصد كل صوت وأترصد كل شبح فقد كنت لا أزال أنتظر •• وشرعت تبكى من جديد ثم إستطردت فى قولها :
- كلا لم أعد أنتظر بل كنت أحاول خداع نفسى فكنت أشبه بمن تنتظر شفقة بنفسها • كنت أجلس أمام الخضرة فوق اسفل درجات الشرفة وقد يبس القلب ولم اكن اقوى على ذرف دمعة •
وجدتنى افكر فى شىء بل لا ادرى حتى من أكون ولا اين كنت ولا ماجئت من اجله • غاب القمر الذى كان منذ قليل يغمر العشب بنوره فانتابتنى رعشه وتمنيت أن تكون رعدة الموت • طلع النهار فاذا بى فريسة مرض خطير فاستدى الطبيب الذى كاشف امى بأمر حملى •
توقفت لحظة ثم عادت تقول :
- عرفت الآن ماكنت ترغب فى معرفته • لو إستكملت قصتى ستجدها قصة امرأة أخرى غير إيزابيل التى طالعتها فى الصورة •

بالفعل أصبح من العسير على أن أتعرف على تلك الأنسانة التى سلبتخيالى • صحيح أنها كانت تقطع حديثها من أن لآخر بالأنين والشكوى متحاملة على القدر وكانت تشكو من الشعر والعاطفة اللذان دائما ما يكونا على خطأ فى هذا العالمالا انى كنت أشعر بالأسف لأنى لم أتبين فى صوتها الحزين تلك الحرارة اللطيفة التى تصدر عن القلب • لا أسف الا عليها ! عجا ! أو هكذا تصورت الحب ! ••

وأذ بى النقط الأشياء التى تناثرت من السلة المتقلبة فوق الأرض • ولم أعد أشعر برغبة فى زيادة الأستفسار • ووجدتنى لا اكثرث فجأة بشخصيتها ولا بحياتها • ومكثت أمامها أشبه بغلام أمام لعبة حطمها ليكشف عن سرها بل إن الفتنة الجسدية التى كانت لاتزال تتمتع بها لم تحرك منى ساكنا ولا خفق أهدابها المنير الذى كنت أنتفض له منذ قليل أهاجنى • كنا نتحدث عن رقة حالها وإحتياجها فسألتها عما تنوى عمله فأجابت :

- سأسعى الى اعطاء دروس خصوصية فى العزف او الغناء فلدى طريقة جيدة
- أه ! هل تغنين ؟
- أجل وأعزف • درست كثيرا فى السابق وكنت تلميذة لتاربييلج وأحب الشعر كثيرا •

ولما لم أجد ما أقوله لها أضافت قولها :

- أنا على ثقة من أنك تحفظ بعض الشعر عن ظهر قلب ! الا تحب أن تسمعنى منه شيئاً ؟

لكن النفور والتقرز ساعدا على الاجهاز على الحب في داخلى فنهضت لأستأذنهما في الأنصراف فقالت :

- عجباً ! أتصرف بهذا السرعة ؟

- للأسف ! أنت مثلى تشعرين انه من الأفضل أنأنصرف الآن

تصورى أنى كنت بينأهلك في يوم من ايام الخريف الماضى • وقد جعلتنى حرارة الجو في الكارفورش أستسلم للنوم وأرى حلما لم أفيق منه الا منذ لحظة ! الوداع

عند طرف الممر ظهر من يعرج فقلت :

- أعتقد انى المح كازيمير الذى يجىء للقائى

- هو قادم فانتظر

كان الصبى يقترب في وثبات قصيرة وكان يحمل فوق كتفه مجرافا

- إسمحى لى أن أذهب للقائه فقد يخرج أن وجدنى معك •

معذرة

عجلت بوداعى بطيقة خرقاء فحييتها في أدب وإنصرفت •

لم أر ايزابيل دى سان – اوريول بعد ذلك ولم أعلم عنها شيئاً بلى فعندما عدت الى الكارفورش في الخريف التالى أخبرنى جراسان أنها هربت مع حوذى عشية الحجز على اثاث القصر بعد أن هجرها مدير الأعمال وأضاف جراسيان كمن يلقى حكمة :

- كما ترى سيد لاكاز لم تستطيع ان تبقى وحدها كان لابد لها من عاشق دوما •

بيعت مكتبه الكارفورش في منتصف الصيف • وعلى الرغم من التعليمات التى أوصيت بها لم أعلم بذلك وأعتقد أن صاحب " مكتبه كان " الذى ندب للأشراف على عملية البيع لم يهتم بدعوتى كما لم يهتم بدعوة أى من هواه الكتب الجادين • وكم كانت دهشتى وسخطى عندما علمت فيما بعد أن نسخة التوراة الشهيرة بيعت بسبعين فرنكا لبائع كتب قديمة في البلدة • وسرعان ماباعها بثلاثمائة فرنك • ولم أعرف المشتري الجديد •

أما عن مخطوطات القرن السابع عشر فلم يأت ذكرها حتى في كشف المبيعات واعتبرت أوراقا قديمة •

كنتأريد أن احضر عملية بيع الآثار على الاقل فكنت أنوى شراء بعض الاشياء الصغيرة كذكرى منال فلوش ولكنى أخطرت بعد فوات الأوان ولم أتمكن من الوصول الى " بون ليفيك " الا عندما عرضت المزارع والضبيعة للبيع •

حصل على الكارفورش مقابل ثمن بخس تاجر عقارات يدعى " موزر سميث " ينوى تحويل الحديقة الى مرعى بعد أن اشتراها منه أحد الهواة الأمريكيين • لم أدر سبب شرائه لها لأنه لم يعد الى البلدة وترك القصر والحديقة على حالهما •

ولما كنت قليل الثروة في ذلك الوقت تصورت أنى لن أحضر عملية البيع الا مشاهدا • ولكنى في صباح ذلك اليوم كنت قد رايت كازيمير عندما سمعت المزايدات فتملكنى ضيق شديد وأنا أفكر في مأساة هذا الصبى فقررت فجأة أن أومن له حياته في المزرعة التى يتمنى جراسان أن يقيم فيها – هل كنتما تعلمان أنى أصبحت مالكا لها ؟ فدون أناقدر ماأنا مقدم عليه وجدتنى أرفع المزداد كان هذاجنونا منى ولكن بهجة الصبى التى بعثت الاسى كانت اعظم مفاجأة لى •

ذهبت الى هذه المزرعة لقضاء عطلة عيد الفصح وعطلة الصيف التالى عند جراسيان حيث كان يقيم كازيمير • كانت مدام دى سان – اوريول العجوز لاتزال على قيد الحياة • كنا قد حاولنا قدر إستطاعتنا أن نترك لها أحسن حجرة • وكانت من فرط تقدر سنها ومامر بها من أحداث قد رجعت الى عهد الطفولة • ولكنها مع ذلك تعرفت على بل لم تكن قد نسيت أسمى تماما فعندما رأتنى جعلت تردد في البداية :

- ما الطف هذا ياسيد لاسكاز ما الطف هذا منك !

فقد كانت تعتقد انى ماجئت الى البلدة الا لزيارتها

قالت معبرة عن إطمئنانها لى كما لو كانت توضح أسباب ما آلت اليه من رقة حال أو كأنما توضح لنفسها :

- يقومون ببعض الإصلاحات في القصر • وسيصبح جميلا للغاية •

يوم أن عرض الاثاث للبيع كانوا قد اخرجوها الى شرفة حجرة الاستقبال في مقعدها الكبير ذو المساند • قدموا لها المحضر على انه مهندس معمارى شهير من باريس بشكل خاص ليشرف على الاعمال التى ستنفذ (كانت تصدق بسهولة كل مايروقها) ثم قام جراسيان وكازيمير وديفلين بنقلها الى تلك الحجرة التى قضى عليها الا تفارقها مع أنها ظلت تعيش فيها ثلاثة أعوام آخر •

خلال ذلك الصيف الاول الذى أمضيته في مزرعتى تم تعارفى بآل (ب) •• وتزوجت من إبتنهم الكبرى فيما بعد • ولم تكن مزرعة (-) التى آلت الينا منذ وفاة اهل زوجتى بمنأى عن الكارفورش وفي كل عام أعود الها مرتين او ثلاث مرات فأحدث مع جراسيان وكازيمير اللذين يقومان بفلاحة أرضها على خير وجه ويسددان لى بانتظام قيمة الايجار المتواضعة • وعندما تركتكما منذ قليل كنت قد ذهبت اليهما •

كان الليل قدتقدم عندما أنهى جيرار حكايته • الا أن جام قبل أن ينام في تلك الليلة ذاتها كتب مرثية رابعة جاء فيها :

" لما طلبت منى أن أنعى هذه الضيعة المهجورة حيث الرياح العاتية ••••• "

النهاية •••••